

صَالِحَاتُ عِرْفَتُهُنَّ

سَيْرُ صَالِحَاتِ مُعَاصِرَاتِ

تَأَلِيفُ

شَيْخَةِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ الْقَاسِمِ

مُشْرِفَةُ تَرْبَوِيَّةٍ

وَعُضْوَةٌ فِي تَأْلِيفِ الْمَقَرَّاتِ الدِّينِيَّةِ سَابِقًا

②

القاسم، شيخة بنت محمد

القاسم. - الرياض، ١٤٣٨ هـ

۱۹۲ ص: ۱۴ × ۲۱ سم

ردمك: ١-٤٥٢٩-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

أ. العنوان

١- المرأة - تراجم

143A/V1A0

دیوی ۷۲، ۹۲۰

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٧١٨٥

ردمك: ١-٤٥٢٩-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

يُحَقِّقُوا الطَّبِيعَ مِنْ حُفُوظَةِ الْوَلَدِ

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

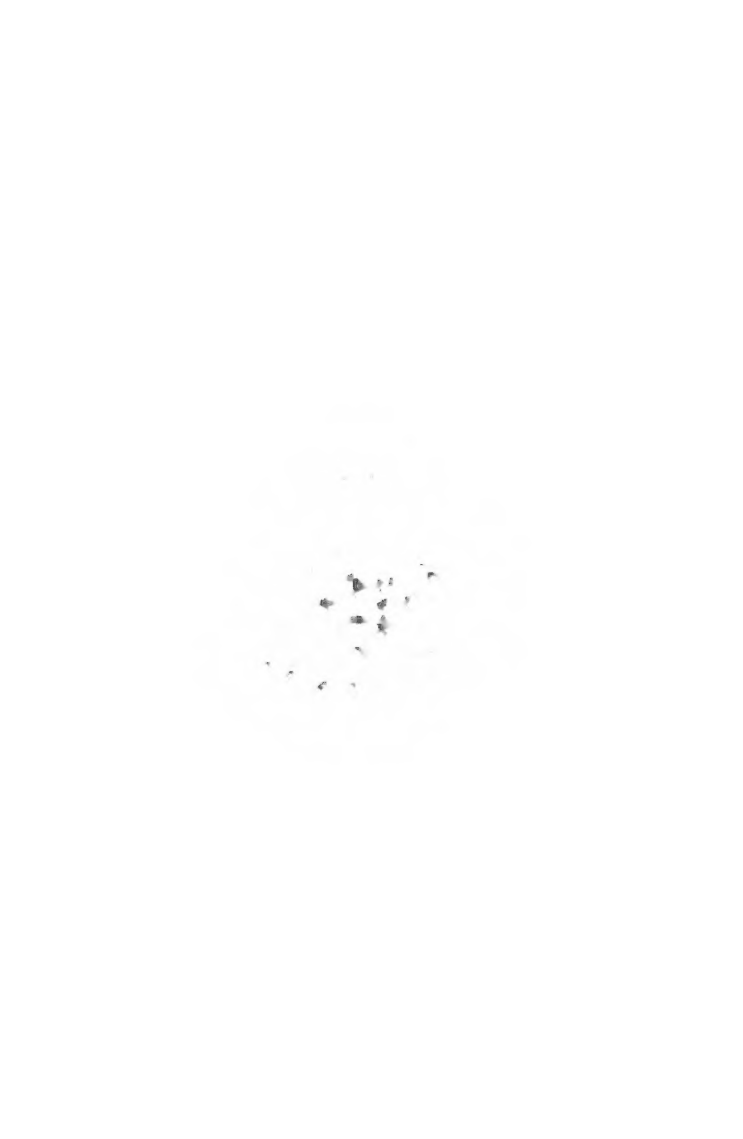
التصميم والتنسيق والإخراج الفني والطباعة



الطابعون والنشرون الناجحون
The Successful Printers & Publishers

الجمعية الخيرية السعودية - الرياض - حي النديعة - طريق المدينة المنورة
 هاتف: 986+ 11 435 66 88 فاكس: 986+ 11 435 88 66
 E-mail: alathaeen@gmail.com I 986+ 580 44 85 88 موال





إضاءة

- عن أسماء رضي الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟» قالوا: بلى، قال: «الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللَّهُ»^(١).
- مَا رَأَيْتُ لِلْقَلْبِ أَنْفَعَ مِنْ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ.
- محمد بن يونس،^(٢).
- الْحِكَايَاتُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ يُثَبِّتُ اللَّهُ بِهَا قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ.
- الجنيد بن محمد،^(٣).

(١) الأدب المفرد للإمام البخاري (٣/٣٢٣)، قال الألباني: حديث حسن.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/٤٥).

(٣) طبقات الأولياء لابن الملقن، ص ١٤٦.

الملفّ المدّة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين
وقدوة الصالحين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد...
فقد صنّف علماء الإسلام سير الصحايات والصالحات
والعابدات، ومن هؤلاء الأئمة ابن الجوزي في كتابه (صفوة
الصفوة) والإمام الذهبي في (سير أعلام النبلاء).

ومن اطّلع على سير الصالحات وما فيهنّ من الصلاح
والتقى؛ ربما تعزو ذلك إلى أنهنّ عشنّ في زمان غير زماننا ومحال
أن تصل إلى ما وصلن إليه **﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾** [البقرة: ١٣٤].
- فمن هذا المنطلق سطرْتُ هذا الكتاب عن سير بعض
النساء الصالحات في زماننا هذا - أحسبهنّ على تقوى وصلاح
- ممن قد تربطني بهنّ صلة رحم أو صداقة أو معرفة عارضة؛
فمنهنّ المرأة الكبيرة والشابة الصغيرة، ومنهنّ من قضت نحبا
ومنهنّ من تنتظر، وما بدلوا تبديلاً.

وقد حرصت ألا أقيد إلا ما رآته عيني أو سمعته منهنّ أو نُقل
إليّ من طريق ثقة، وأبرزتُ الجوانب المشرقة في حياتهنّ؛ ليُعلم
أن القدوات الحسنة لسنّ في القرون الأولى فحسب، بل لا يخلو
منهنّ زمن، فالخير باقٍ في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فقد

قال تعالى عن أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩] أي من صدر هذه الأمة ﴿وَنُثْلَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٠] أي من آخرها..

وقصدتُ من كتابة هذه السير المؤثرة ذات الصبغة العلمية التربوية، الحافلة بالفوائد واللطائف؛ حياة القلوب، وسمو النفوس، وتعطير المجالس بعبق ذكراهنَّ، وانبعاث الهمم، وتقوية العزائم للتأسي بهنَّ، فكم من قلوب حيّت، ونفوس سمت بعد قراءة قصة حقيقية أو موقف رُوي لها.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
إنَّ التشبُّهَ بالكرامِ فلاحُ

ختامًا : أسأل الله سبحانه أن يكتب القبول لهذا الكتاب، وأن ينفعني به يوم أن ألقاه، وأن ينفع به من يقرؤه، إنَّ ربِّي مجيب الدعاء، والحمد لله رب العالمين.

كتبته

شيماء بنت محمد القاسم

Smq-1@hotmail.com

١ - نورة الزومان

جدّتي لأبي

«أيضيق صدري وعندي كتاب الله؟» (*) .

(*) العبارة مُنتَقاة من أبرز ما ذُكر في السيرة.

١ - نورة بنت محمد الزومان

جدّتي لأبي، أحدثكم عنها؛ عن قُرب، طالبة العلم الزاهدة العابدة الورعة.

جبل أشمّ في حسن الخلق ورجاحة العقل.
قلّ أن تجد في عمرها وزمنها من يجمع بين العلم الشرعي والعبادة وحسن الخلق والرزانة ورجاحة العقل.
لا أبالغ في هذا، فالقاصي والداني يشهد لها بما ذكرت.

نشأتها :

- تزوجت جدّي الشيخ عبدالرحمن بن قاسم وهي صغيرة في السن، تربّت على يديه التربية الصالحة، فقد كانت تراه أنموذجاً حياً في العلم والعبادة، وقدوة صالحة ماثلة أمامها؛ تتلقى منه العلم الشرعي وتقرأ في كتبه، فتعلّمت وعملت وعلمت من حولها من أبناء وأحفاد وأقارب ومعارف.

فهنيئاً لها هذا الفضل... وهذا يُذكرنا بما قاله ابن القيم : من علّم وعمل وعلم فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السموات^(١).

(١) زاد المعاد (٣/ ١٠).

سكنها :

- كانت تسكن مع جدّي وأبنائها في منزل كبير في مزرعة (المغيدر)^(١).. مزرعة تتميز بكثرة أشجار النخيل، والرمان والخوخ، وعروش العنب.. هناك؛ حيث الهواء النقي، والنسيم العليل، ففي كلّ صباح شمس تشرق، وطيور تغرد، ومياه تنساب معلنةً أنّ هذا يومٌ جديد..

يشعر الداخل فيها بسرور وانسراح صدر، مع ما يصاحبه من صلاح حال أهلها واستقامتهم.

حسن رعايتها لبيتها :

- كان جدي كثير السفر والتنقلات فحملت عبء المسؤولية على عاتقها؛ بالإشراف على المزرعة؛ من إعداد طعام عمّال المزرعة وإكرام الضيوف وتربية الأبناء وحلب البقر وحصد الزرع و.....

أدرك ذلك عمّال المزرعة مما جعل أحدهم يقول - محسنًا الظنّ بالله- إن كان عمل هذه المرأة لله فلتبشر بالجنة.

- ربت أبنائها تربية صالحة، قوامها؛ أمرهم بالمحافظة على الصلاة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾

(١) قرية من (الدرعية) بجوار مدينة الرياض.

[ط: ١٣٢]. وكانت تعينهم على ذلك؛ ففي ليالي الشتاء الباردة؛ تُسخّن الماء على الحطب قبيل أذان الفجر، فإذا أذن الفجر يُقظتهم للوضوء والصلاة في المسجد.

- كانت جدّتي شديدة المحافظة على النعمة؛ ففي صحتها وشبابها كانت تُنقي التمر المتساقط من أعالي النخل؛ فالتمر الجيد طعام للآدميين، والرديء طعام للبهائم.

- كان وقت تناول وجبات الطعام في المزرعة له طابع جميل ونظام دقيق لا يتغير؛ فوجبة الإفطار في الساعة السابعة تقريباً، وطعام الغداء بعد صلاة الظهر مباشرة، وطعام العشاء بعد صلاة المغرب مباشرة، ولربما أحدهم يصلي سنة المغرب وإذا طعام العشاء قد حضر!

- وقد وهبها الله قوة ونشاطاً في عملها، من ذلك أنها كانت في أحد الأيام تدقّ الحبّ في الآلة المعروفة آنذاك (الرّحى)، وعندما انتهت سمعت ضحكة أحد الصغار كان مختبئاً في زاوية الغرفة يعدّ صوت دقّات الحبّ التي بلغت تسعاً وتسعين دقة .. فسبحان من أعانها وقوّاها.

البركة في الوقت والرزق :

• البركة : هي قدر زائد على العطاء، وهي دوام الخير وكثرته. ولا خير أكثر وأدوم من خير الله سبحانه، والتقوى سبب

للبركة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

- بارك الله في وقت جدتي وعمرها : وإلا فأتى لامرأة واحدة أن تقوم بأدوار عديدة فهي الأب في غيابه والأم والمربية والمعلمة والطباخة والخيّاطة و....؟!!

- وأما البركة في الرزق : فإنّ جدّي عندما همّ في إحدى المرات بالسفر إلى مكة أعطاهم مبلغاً من المال، قائلاً : اصرفيه عند الحاجة، وعاد بعد مضي عام وهي لم تحتج إليه!.

- بارك الله لها فيما تنتجه المزرعة وما أحسنت التصرف من مواردها.

شركاء في الأجر :

- كان جدّي كثير السفر لانشغاله بجمع (الدرر السنينة في الأجوبة النجدية) - ستة عشر مجلداً - ثم (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية) سبعة وثلاثين مجلداً؛ استغرق جمعها وطباعتها أربعين سنة! جمعها من خزائن المخطوطات في مكاتب لبنان والعراق ومصر وسوريا وألمانيا وفرنسا... ولربما غاب عن بيته سنة أو ستين! وربما سافر وهي حامل بجنين وعاد من سفره والطفل يحبو أو يمشي!

- ولك أن تتخيل حال هذه المرأة الصالحة التي تقوم بأعباء كثيرة ومسؤوليات جسيمة وعمل دؤوب؛ تصارع الحياة وتقارع خشونة العيش وحدها، وخاصة وهي في مقتبل عمرها، وأولادها صغار، والليل موحش، مما حدا بأخيها أن ينام عندها بعض الأحيان ليؤنسها.

إنها والحالة هذه لا بد أن تبتّ شكواها ومعاناتها لجدي بين حين وآخر.

ولابدّ من شكوى إلى ذي مروءة

يُواسيك أو يُسليك أو يتوجّع

فقال لها يوماً: أنت شريكة لي في الأجر (يعني في أجر تأليف الكتب)... أشركها همّه، وعایشها دعوته، فما تدمرت بعدها قط! هنيئاً لها!، أعانته على أمر آخرته، وفرغته لخدمة الإسلام، وتحملت عنه أعباء المسؤولية؛ من رعاية الأبناء وتنشئتهم التنشئة الصالحة، والتدبير الحسن في بيتها، والإشراف على المزرعة قامت بذلك على أحسن وجه، نسأل الله أن تكون شريكة له في أجر تأليف كتبه والتي اشتملت على عدة فنون (التوحيد والفقه وأصول الفقه والتاريخ...) نفع الله بها الإسلام والمسلمين، وكأني بجدي - رَحِمَهُ اللهُ - قد عمل بوصية نبينا ﷺ: «لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ عَلَى شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى أَمْرِ»

الْآخِرَةَ^(١)، وقوله ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(٢).

● وهذه رسالة لزوجات العلماء والدعاة أن يحذرن حذوها في الصبر على غياب أزواجهن ورعاية أبنائهن، فهنّ - بإذن الله - شريكات في الأجر والثواب مع أزواجهنّ في هداية الناس وتعليمهم الخير، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فهناك مصالح لا تتمّ إلا بالتعاون بين الأفراد ولهم الجزاء الموفور من الله سبحانه؛ فقد قال ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ وَالرَّامِيَ بِهِ وَمُنْبَلُهُ»^(٣).**

صلاحها وتقواها ،

- لمستُ من حياة جدّتي الإخلاص في أقوالها وأعمالها، إنها لا ترضى أن يُثني على عبادتها أحد!
- لمستُ من حياة جدّتي الحرص على اغتنام الأوقات، وهذا مصداق ما قاله بعض السلف: كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة؛ فقد

(١) رواه الترمذي برقم (٣٠٩٢)، وابن ماجه برقم (١٨٥٦)، صحيح الجامع للألباني برقم (٥٢٣١).

(٢) رواه مسلم برقم (١٤٦٧).

(٣) رواه أبو داود برقم (٢٥١٣) قال محققوه: حديث حسن، منبله: مُناولة للرامي ليرمي به احتساباً منه، يقوم بجنبه أو خلفه فيناوله إياه أو يجمع له السهام إذا رملها ويردها إليه.

زرتها ذات يوم (يوم الاثنين من شهر شوال) وهي صائمة فظننتُ أنه من صيام الست، فقالت: انتهيت من صيام الست، ولكن لعل هذا اليوم ينفعني إذا لقيت ربي.

- لمستُ من حياة جدّتي حب الخير للآخرين، ولا يزال يتردد في أذني تكرار وصيتها لبعض أقاربها أن يوصل لأحد المعارف أن يحجوا عن ابنة من عائلتهم توفيت قديمًا وهي شابة ولم تحج ولم يحج عنها.

- ومن فقهها: قالت ذات مرة لعمّة والدي: اللهم اجعلني أراك بعد المرور على الصراط، فأمنت عمّتي على دعوتها... إنها تعلم أن مَنْ مرَّ على الصراط فقد سَلِمَ من النار كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ۖ﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

- وأصيب أحد أحفادها بجرح فسال منه دمٌ غزير فأمرت بإحراق سعفة من النخلة ووضعها على الجرح فتوقف الدم.. ولعل هذا (الطب) اكتسبته من الحديث الصحيح: «أنه لما أدمي وجه النبي ﷺ يوم أحد فكانت فاطمة عليها السلام تغسل وجهه، وعلي عليه السلام يسكب الماء بالمجن (*)، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ الدَّمَ يَزِيدُ عَلَى

(*) المجن: الترس.

الْمَاءِ كَثْرَةً، عَمَدَتْ إِلَى حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا وَأَلْصَقَتْهَا عَلَى جُرْحِهِ
فَرَقَأَ الدَّمَ»^(١).

حرصها على المحافظة على الوضوء والصلاة :

• قال ﷺ: «لَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(٢).

دَلَّ الحديث على استحباب دوام الطهارة، وأن المحافظة
على الوضوء من علامات الإيمان، وأنه يستحب عقب الحدث
وإن لم يكن وقت صلاة ولم يُرد الصلاة...

- كانت جدتي حريصة أن تكون على طهارة دائمة، تنتظر
الصلاة انتظار المشتاق المحب، فإذا ما أذن المؤذن قامت إلى
الصلاة، فالصلاة عندها لها منزلة كبرى ومكانة عظمى؛ فقد
كانت قرة عينها ونعيم قلبها وسعادة روحها.

سجدة الليل :

• قال تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨]، قال ابن عباس:

من قيام الليل^(٣).

• قيام الليل من أفضل الطاعات فقد قال ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ

بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»^(٤) قال بعض

(١) رواه البخاري، برقم (٢٩٠٣).

(٢) رواه ابن ماجه برقم (٢٧٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٢٦/١٩).

(٤) رواه مسلم برقم (١١٦٣).

السلف: إني لأفرح بالليل حين يقبل، لما يلتذ به عيشي، وتقرُّ به عيني من مناجاة من أحب، وأغتم للفجر إذا طلع، لما أشتغل به بالنهار عن ذلك»^(١).

• في قيام الليل لذة وحلاوة وسعادة وفرح وانشرح صدر لا يتذوقه إلا من صفّ قدميه لله في ظلمة الليل البهيم؛ يناجي ربّه؛ يرجو رحمته ويخاف عذابه.

- جدّتي قوّامة ليل؛ بُتّ عندها في إحدى الليالي وكان أذان الفجر الساعة الرابعة، فرأيتها استيقظت قبل الساعة الثانية ليلاً، لم تغرها لذة نوم ولا دفء فراش، فصلّت ما شاء الله لها أن تصلي ثم استراحت قليلاً حتى أذن الفجر ثم قامت لصلاة الفجر.

منع القرآن بوعدده ووعدِهِ
مُقَلِّ الْقُلُوبِ بليْلِها لا تهجُ
فهِمُوا عن الملكِ العظيم كلامه
فهِمًا تَذِلُّ له الرقاب وتخضعُ

خشيتها لله :

• الخشية : هي الخوف المبني على علم بعظمة الله، وإذا سكنت الخشية القلوب أقبلت الجوارح على الطاعات وأحجمت عن الشهوات.

(١) طريق الهجرتين لابن القيم، ص ٣٢١.

- أقمتُ عندها وأنا صغيرة تسعة أيام - لا أنسى حلاوة تلك الأيام ما حييت - رأيتُ منها شدة خشيتها لله والتماس رضاه - فيما نحسبها والله حسيبها - .

- كان رؤية وجه جدّتي المستنير وسمّيتها وهديها يُذكر بالله واليوم الآخر، وهذا أمرٌ لا غرابة فيه، فقد ورد أن التابعي العابد أيوب السخيتاني إذا رآه أهل السوق سَبَّحُوا وهَلَّلُوا وكَبَّرُوا .
- كانت خاشعة لله خائفة؛ تحدثنا عن النفخ في الصور وأهوال يوم القيامة .

تحدثنا عن الساعة، وكأنها ستقوم قريباً بين عشية وضحاها .
تحدثنا عن النار، وكأن النار قد خُلقت لها!
- تُحِبُّ أن يُقرأ عليها أحاديث النبي ﷺ وكتب السير، وتبكي لحديث أم معبد الخزاعية في وصف النبي ﷺ .
- كُنَّا إذا قرأنا عليها قصيدة زين العابدين المشهورة التي مطلعها :

ليس الغريبُ غريبَ الشَّامِ واليَمَنِ
إِنَّ الغريبَ غريبُ اللَّحْدِ والكفنِ
غَطَّتْ وجهها وأجهشتُ بالبكاء! .

- ومع هذا كُلُّه؛ كانت ترى من نفسها التقصير في حقِّ الله سبحانه على ما هي عليه من الطاعات... إنه التواضع ومقت

النفس في ذات الله، وهذا مقام لا يدركه إلا أصحاب القلوب الحية.

صبرها على المصائب :

• الدنيا دار الأكدار والأحزان، لا بدّ فيها من الابتلاء وتغيّر الحال، والمؤمن يصبر على ما يجد فيها من الابتلاءات لما وعد الله به الصابرين من الجزاء الحسن، كما قال المصطفى ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنَزَلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ، ابْتِلَاؤُهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَرَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُبْلَغَهُ مَنَزَلَتُهُ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

- أبُتِلِيتْ جدّي بوفاة ابنتها وهي في ريعان شبابها - بدءا البطن - نرجو لها الشهادة، فالمبطون شهيد كما ورد عن النبي ﷺ - ثم بعدها بسنوات فقدت ابناً لها في حادث دهس توجّعت وحنّنت عليه حزناً شديداً، فدعت ربها بعد ثلاث ليالٍ من وفاته أن ينزع شغف حبه من قلبها، فاستجاب الله لها وسكنت نفسها، وبعد سنة ونصف توفي جدّي - زوجها - وبعد عشر سنوات توفي ابنها الأكبر (عبدالله) فصبرت واحتسبت مستحضرة قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

(١) رواه أبو داود برقم (٣٠٩٠).

فَكُلُّ مُصِيبَةٍ عَظُمَتْ وَجَلَتْ تُخَفُّ إِذَا رَجَوْتَ لَهَا ثَوَابًا تُحِبُّ فِي اللَّهِ وَتُبْغِضُ فِي اللَّهِ :

• من أصول الدين : الولاء والبراء : الحب في الله والبغض في الله، قال ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ ، وَأَعْطَى لِلَّهِ ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ »^(١).

تحب في الله : الحب في الله من أعمال القلوب العظيمة، والمصارحة بمحبة الإخوان من المستحبات، ومن كرائم الأخلاق، ومحاسن الشيم، فقد ورد عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمر به رجل فقال : يا رسول الله، إني لأحب هذا، فقال النبي ﷺ : **أعلمته؟** قال : لا، قال : **أعلمه**، فلحقه فقال : إني أحبك في الله، فقال : أحبك الذي أحببني له.^(٢)

- رأيت جدتي تطبق هذه السنة؛ قالت ذات مرة لإحدى حفيداتها: إني أحبك في الله، ولما أخطأت الحفيدة في الرد، صوبتها إلى الرد الصحيح : «أحبك الذي أحببني له».

- كانت تحب العلماء والصالحين : إذا مر ذكر العلماء والمشايخ المتوفين من أصدقاء جدي دعت لهم وترحمت عليهم.

(١) رواه أبو داود برقم (٤٦٨١).

(٢) رواه أبو داود برقم (٥١٢٥).

- وقد أوصت أحد الأقارب أن يوصل سلامها إلى الشيخ عبدالعزيز بن باز ثم أردفت قائلة - تواضعاً - : أنا أقلُّ قدرًا من أن يصله سلامي!

- حدثتُها ذات يوم عن زميلة لي صالحة تقيّة وذكّرتُ طرفًا من سيرتها العطرة، فما كان منها إلا أن طلبت مني أن أقرئها السلام. كانت تفرح بما يحصل للمسلمين من نعمة وخير، وتُسرُّ بذلك، تُذكّرُك بما قال ابن عباس رضي الله عنهما : إني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح به وما لي به من سائمة^(١).

وكانت تبغض في الله :

- تبغض الكفرة وتكره السفر إلى بلادهم.
- وكلّما تذكّرتُ حفيدتها التي سافرت إلى بريطانيا برفقة زوجها الذي كان يدرس هناك، ردّدت دعوتها المألوفة : «اللهم أخرجها من الظلمات إلى النور».

- وفي عصر يوم من أيام شهر رمضان، قدّمتُ عليها إحدى المعارف وبرفقتها خادمتها النصرانية، فغضبت لله، وذكّرتها بتحريم استقدام الكفار، وتكدّر خاطرها، ولم تشته طعام الإفطار ذلك اليوم، والله المستعان!.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣٢٢).

حال مجلسها :

• إِنَّ مِنْ عَظَمٍ وَقَارِ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ وَقَرَّهَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ خَلْقِهِ، وَأَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ الْعِبَادِ إِلَيْهِ، قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : كَانَ يُقَالُ : مَنْ اتَّقَى اللَّهَ أَحَبَّهُ النَّاسُ وَإِنْ كَرِهُوا ^(١).

- وهذا ما رأيناه منها رأي العين، فقد وضع الله لها محبة وهيبة ومكانة عظيمة عند القريب والبعيد، أجمعت القلوب على محبتها وتقديرها واحترامها.

ولعلها - ولا نزكي على الله أحداً - يصدق عليها قول الشاعر:

فَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ بَاطِنَ عَبْدِهِ

ظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَوَاهِبُ الْفَتَاحِ

وَإِذَا صَفَّتْ لَهِ نِيَّةٌ مُصْلِحِ

مَالَ الْعِبَادُ إِلَيْهِ بِالْأَرْوَاحِ

- مجالسها لا تملّ؛ تنتقي أطيب الكلام كما ينتقى أطيب الثمر: فحديثها لا يخلو من الاستشهاد بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو حكم شرعي أو موعظة أو قصص السلف، ولذا فلا يقوم من حضر مجالسها إلا غانماً - والله الحمد -.

• قال أبو الدرداء : ما تصدق عبد بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها إخواناً له مؤمنين فيتفرقون وقد نفعهم الله بها ^(٢).

(١) كتاب الفوائد لابن القيم ص ٨٣.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٤٢).

- وللصغار نصيب من علمها : فقد علّمت بعض أبنائها وحفيداتها القراءة وبعض سور القرآن الكريم، وكانت تقصّ علينا ونحن صغار قصص الأنبياء - عليهم السلام - وما فيها من دروس وعبر، مستشهادة بالآيات القرآنية.

• وهذه رسالة لطلاب وطالبات العلم أن يغتنموا حضور الكبار والصغار من الأقارب والمعارف مجالسهم، ويفضوا عليهم بما تفضل الله عليهم من علم، فربما يقوم أحدهم تائبًا، وآخر عازمًا على طلب العلم،...

حالتها مع القرآن :

• قال سبحانه مثنيًا على صنف من عباده الصالحين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر : ٢٩].

• قال خبّاب رضي الله عنه : تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه ^(١).

• وقال ابن القيم : القلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلّصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن ^(٢).

- كان القرآن الكريم أنيس جدّي وجليسيها، فكانت في شبابها

(١) مختصر الليل للمقرئزي، ص ٧٥.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٤٥).

وهي تعمل في بيتها أو في المزرعة تقرأ ما حفظته، وربما أثرت أحياناً عدم مخالطة أهل بيتها لتقرأ في كتاب الله، فغرس الخلوة يثمر الأنس كما قال ابن القيم^(١).

أما العشرون سنة الأخيرة من عمرها بعدما تزوج الأبناء ومات جدي - رَحِمَهُ اللهُ - فكانت تقضي جلّ وقتها في تلاوة القرآن الكريم من الصباح الباكر إلى أذان المغرب؛ لا يقطع عليها إلا أداء صلاة، أو تناول وجبة طعام، أو قيلولة بعد الظهر، أو لقاء ضيف قَدِمَ للسلام عليها، أو ما شابه ذلك من الضروريات.

تُذَكِّرُك بما قاله نافع مولى ابن عمر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - لما سُئِلَ : ما يصنع ابن عمر في منزله؟ قال : لا تطيقونه؛ الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما^(٢).

- كان غلاف مصحف جدّي يتمزق من بين حين وآخر لكثرة قراءتها فيه فيُعاد تجليده!

وترفض تغييره : «هذا رفيقي لا أغیره».

- قلت لها ذات يوم : لو استمعت إلى شريط تسجيل للقرآن، فقالت : لو كنتِ جائعة تنظرين إلى من يأكل الطعام أم تشاركيه في الأكل؟ قلت : أشاركه في الأكل.

(١) الفوائد ص ٧٨.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٢١٥).

قالت : كذلك قراءة القرآن أفضل من الاستماع إليه، وهذا من فقهها(*) .
- قالت لها إحدى القريبات : ألا يضيق صدرك؟ فعجبت من
سؤالها وأجابت : أضيق صدري وعندي كتاب الله! وصدقت:
﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨].

- زرناها عصر ذات يوم، وتجاذبنا معها أحاديث مباحة،
فكانت تشاركنا تارة وتعقد أناملها بالذكر تارة أخرى، ولما أذن
المغرب باحت لنا بندمها على ما فات من الوقت في غير ذكر...
إنها تدرك قيمة الوقت وقدر نفاسته!

قوة استحضارها للآيات القرآنية :

وقد اكتسبت ذلك من كثرة تلاوة القرآن الكريم، من ذلك :
- لما رأت سجادة كبيرة في دارها تطوى، تلت هذه الآية:
﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء : ١٠٤].

- حدثناها في إحدى المرات عن موضوع ما، فلم تسمع ما
قلنا، ثم هزت رأسها وقالت : إيه! ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء : ٣٦].

- وذكرت لنا يوماً أن من فاته قيام الليل يقضيه في النهار، ثم
تلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن
يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان : ٦٢].

(*) لكنها لما ضعفت في آخر حياتها أصبحت تكثر من سماعه.

- ولما بُشِّرَتْ بولادة حفيد لها دعت أن ينبتة الله نباتًا حسنًا..

كما قال تعالى: ﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾

[آل عمران : ٣٧].

- وذكرت لها امرأةٌ صالحةٌ صبورةٌ واقعةٌ حصلت لها، فلم

تَرَ الحقائق على ما هي عليه لطفًا من الله بها، فقالت لها جدتي :

أنت كأهل بدر الذين قال الله فيهم ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِي

أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال : ٤٤].

حُسن خلقها :

• حُسن الخلق : منقبة حميدة ومنزلة رفيعة، قال ﷺ : «أَرْبَعُ

إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَانَكَ مِنَ الدُّنْيَا : حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ

حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ»^(١).

- من الله سبحانه على جدتي بهذه الصفات الأربع فقد كانت

حسنة الخلق، عاقلة، رزينة، صادقة في حديثها، عزيزة النفس،

غنية القلب، طعمتها حلال، لا تنظر إلى ما في أيدي الناس، بارةٌ

بوالديها في حياتهما وبعد مماتهما، تُحبُّ صلة الرحم، وتفرح

بالاجتماعات العائلية، تسأل عن أحوال الصغير والكبير، تشاطر

الناس أفراحهم وأتراحهم، تتألم لألم المريض، وتفرح لفرح

المسرور، وتحزن لحزن المحزون.

(١) رواه أحمد برقم (٦٦٥٢)، صحيح الجامع برقم (٨٨٦).

- لا يسمع منها كلمة نابية أو غليظة أو مشتملة على سوء أدب، كان خُلِقَ الحلم رفيقها إلى أن ودعت الحياة.

- أحضر لجدتي خادمة لما كُبرت وضُعت، أحبّت جدتي حبّاً جمّاً لما رأت عليها من أمارات الصلاح وحلاوة اللسان بالذكر والتسبيح والدعاء للمسلمين، وقد أرسل أبناء الخادمة يطلبون منها حضور زواج ابنتها فأبّت وقالت بالحرف الواحد : سألزم هذه المرأة حتى الممات، زوّجوا أختكم!

وصدق الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، قال بعض السلف: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عزّ وجل إلا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم^(١).

زهدها وورعها :

• الزهد : ترك ما لا ينفع في الآخرة.

والورع : ترك ما تخاف ضرره في الآخرة^(٢).

- كانت جدتي ورعة تقيّة زاهدة، لم تغرها الحياة الدنيا، يكفيها القليل من الطعام واللباس، تُذكّرُك بزهد الإمام أحمد في قوله : «إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها هي

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٠).

(٢) مدارج السالكين (٨/ ٢).

أيام قلائل»^(١).

- قدمتُ لزيارتها ذات مرة، فأخبرتني أنّ أحد محارمها خرج من زيارتها قبل قليل، وأخبرها أنه تمّ زواج ابنه البارحة، وأنّ الزواج كان مختصرًا، ولم يزد على ذلك، ثم أردفت قائلة: لم أسأله عن تفاصيل الزواج، ولو سألته لأخبرني، ولكن ذلك لا ينفعني في آخرتي!

وعدت أنّ هذا من فضول الكلام.

- كانت تتورّع عن دقائق الأمور: لما توفي زوج ابنتها - عمتي - أقامت عند ابنتها في الرياض أيامًا من أيام العدة، ولما رأت كثرة الضيوف القادمين للسلام عليها؛ رجعت إلى بيتها في المزرعة بسبب أفصحت عنه: أموال اليتامى تصرف في الشاي والقهوة!.

يا له من قلب فطن يعي دقائق الورع!

● لقد شابها ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الورع) عن بعض أهل العلم: «أنّ امرأة من الصالحات أتتها نعي زوجها وهي تعجن، فرفعت يديها من العجين، وقالت: هذا طعام قد صار لنا فيه شريك، وأخرى أتتها نعي زوجها والسراج يتقد، فأطفأت السراج، وقالت: هذا زيت قد صار لنا فيه شريك»^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء (١١/٢١٥).

(٢) ص ٩٩.

كَرَّرَ عَلَيَّ حَدِيثُهُمْ يَا حَادِي فَحَدِيثُهُمْ يَجْلُو الْفَوَازَ الصَّادِي

حرصها على تطبيق السنة :

• قال ابن تيمية : «أسعد الخلق وأعظمهم نعيمًا وأعلاهم درجة؛ أعظمهم اتباعًا وموافقة له ﷺ علمًا وعملاً»^(١).

- كانت جدتي حريصة على إقامة السنة اقتداءً بنينا ﷺ كحضور صلاة العيدين، وسنن الصلاة وقيام الليل والصيام والأذكار والأوراد، والمحافظة على أدب الحديث والأخذ باليمين ولعن الأصابع ولعن الصحيفة وغير ذلك.

لباسها :

- كان لباس جدتي واسعًا فضفاضًا، تلف الخمار على رأسها فيبدو وجهها الوضوء، حريصة على الستر والحشمة فلا يظهر منها ذراع ولا ساق.

- وقد كنا يومًا في مجلسها نتسامر معها، فتنبهت إلى ثقب صغير في ثوبها - لا يكاد يُرى - فسألنا : هل رأيتم ما تحته؟!
الله المستعان! ماذا لو رأت من تتعمد إظهار مفاتها، فما عسى أن تقول؟!

(١) مجموع الفتاوى (٤/٢٦).

حجابها :

• قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لا مرأته لما قالت له : «اكسني جلباباً»، قال : «كفاك الجلباب الذي جلبك الله عز وجل به : بيتك»^(١).
- لم تكن جدتي خراجة ولاجة، بل عاملة بأمر الله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ومما أعانها على ذلك أن أقاربها وأرحامها كانوا لا ينقطعون عن زيارتها، فلم تكن ترى حاجة للخروج.
لها (عباءة) ثقيلة جداً - وكأنها من قماش الخيمة - تحتفظ بها في صندوق حديد، تلبسها عند خروجها لأداء صلاة عيد الفطر ثم تخبئها إلى صلاة عيد الأضحى.. فهي لا تخرج إلا لصلاة العيدين! (*)

- وإن مرضت تناولت دواءً شعبيًا أو دواء من الصيدلية، فهي لا تحب الذهاب إلى المستشفيات، وقد أحضر لها الطبيب مرتين أو ثلاثاً لما مرضت وهي كارهة قدومه إليها.

حياتها :

- حباها الله حياة لم تسجله كُتب السير - فيما أعلم - من ذلك؛ أنها كانت لا ترضى بيع خواتمها خشية أن يعرف البائع حجم أصابعها!! كما كانت ترفض أن تُخاط ثيابها عند الخياط.

(١) إصلاح المال لابن أبي الدنيا برقم (١٩١).

(*) استثناء عندما توفي زوج ابنتها كما أسلفت.

أمرها بالمعروف ونهياها عن المنكر :

● للأمر بالمعروف منزلة عظيمة، فبتحقيقه يكثر الخير ويضمحل الشر، وإذا طُوي بساطه فَشَتَّ المنكرات.

- كانت جدِّي شجاعة في الصدع بكلمة الحق، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولا تحابي أحداً، ولا يغضب منها أحد، فقد كتب الله لها القبول.

من ذلك :

- كانت تحذرنا - الحفيدات - من التشبه بالكافرات في قص الشعر وتبين لنا حرمة التشبه، وتوصينا بإطالة الشعر وأنه جمال للمرأة، وتستدل ببيت من الشعر لا مرئ القيس صعب اللفظ، جزيل المعنى، وهو من المعلقة السبع:

وَفَرَعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَا حِمٍ
أَثِيثٍ كَقِنُو النَّخْلَةِ الْمُتَعَثِكِلِ^(١).

- وعتبت مرة علينا في عدم لبس أساور الذهب كعادة الصغيرات والكبيرات من النساء، فقلنا : لا نحب لبس الذهب، فقالت : - وهي تفقه الواقع - ليس هذا مقصدكنّ، بل رأيتنّ أولئك - تقصد الكافرات - لا يلبسن الذهب فتركتنّ لبسه!

(١) الفرع: الشعر، الفاحم: الشديد السواد، الأثيث: الكثير، النخلة المتعكة: التي خرجت عثاكيلها أي قنوانها.

- وتأمرنا بوضع الحناء حتى لا نتشبه بالرجال، وتستدل بحديث الرسول ﷺ : (أن امرأة أومت من وراء ستر يدها كتاب إلى النبي ﷺ فقبض النبي ﷺ يده فقال : «ما أدري أيد رجل أم يد امرأة»، قالت : بل امرأة، قال : «لو كنت امرأة لغيرت أظفارك»^(١) يعني بالحناء.

- وكانت تصحح لنا عند وداعها بقولنا (مع السلامة) باستبدالها بـ (في أمان الله).

- زرناها في إحدى المرات ومعنا خادمة من شرق آسيا، قالت : أسألها عن التوحيد في بلادها، قلت : إنها مسلمة، قالت : «حتى ولو» (وكانها تشير إلى عبادة القبور التي افتتن بها كثير من الجهال). - أصيبت إحدى معارفها بالوسواس في الوضوء، ولما بلغها الخبر، وكيف أنها تهدر الماء الكثير عند الوضوء، أوصت قريبتها «أن تقرأها السلام، وأن تذكّرها بأن كل قطرة من الماء تقع على الأرض ستُحاسب عليها».

فما إن وصلت النصيحة لهذه المرأة إلا وجاهدت نفسها وانقطعت عنها الوسواس، وما أسرفت بعدها في الوضوء.

(١) رواه أبو داود برقم (٢٦٢٥٨) قال محققوه : إسناده ضعيف، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٧٨٥٩)، قال في عون المعبود : وفي الحديث شدة استحباب الخضاب بالحناء للنساء.

ومرّت السنوات وما نسيت هذه المرأة الدعاء لجَدّتي على
هذه النصيحة المؤثرة - وأحسبها - أنها خرجت من قلب صادق
مخلص فوصلت إلى قلب المرأة.

• قال بعض السلف: رُبَّ كلمة لا يُلقِي لها العبد بالاً يركض
بها إلى أعلى عليّين في جوار رب العالمين.

أثر نور الإيمان على المؤمن :

• قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنّ للحسنة نوراً في الوجه، وضياءً في
القلب، وقوةً في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق،
وإنّ للسيئة ظلمةً في الوجه، وسواداً في القلب، وضعفاً في البدن،
وضيقاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق^(١).

• وقال ابن تيمية : ما في القلب من النور والظلمة والخير
والشر يسري كثيرًا إلى الوجه والعين، وهي أعظم الأشياء ارتباطًا
بالقلب^(٢).

• وقال سبحانه : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور : ٣٥].

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ : أي هادي أهل السموات
والأرض.

(١) الوابل الصيب لابن القيم، ص ٥٦.

(٢) الاستقامة، ص ٣٥٥.

﴿مَثَلُ نُورٍ، كَمَشْكُوفَةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾: أي مثل نوره في قلب المسلم، قال ابن القيم: وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده المؤمن من معرفته ومحبه والإيمان به وذكره.... وأصل - هذا النور - في قلوبهم ثم تقوى مادته فتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم، وأبدانهم، بل وثيابهم، ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وإن كان سائر الخلق له منكر...^(١).
واليك ما رأيناه من جدّتي :-

- (على وجوههم): كان وجهها وضّاءً، يشعّ منه نور الإيمان، يشهد بذلك كل من رآها، وازداد هذا النور عند قرب أجلها!
- (وعلى جوارحهم): قد سخرت جوارحها التي تنطق بها وتسمع بها وتنظر بها وتمشي بها إلى ما هو خير وصالح لها... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

دروس وعبر من سيرتها :

• قال ابن القيم يصف القلب الصحيح السليم : القلب الصحيح هو الذي همّه كلّهُ في الله، وحبّه كلّهُ له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى من كل حديث، وأفكاره تحوم حول محابّه ومراضيه^(٢).

(١) الوابل الصيب، ص ١٠٤.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٥٩).

- كأن ابن القيم - **رحمته الله** - يصف حال جدتي! ... فقد كانت شديدة التعلق بالله والسعي لمرضاته؛ فإن رأيت المصلين فهي منهم، وإن رأيت الذاكرين الله كثيرًا فهي منهم، وإن رأيت المتصدقين فهي منهم، وإن رأيت التالين لكتاب الله عز وجل فهي منهم، وإن رأيت الرحماء فهي منهم....

- وما ذكرته عنها من مواقف إنما هو شيء من خلجات الخاطر ورذاذ من العبق العاطر، وإلا فالمواقف أكثر من أن تُحصى وأغزر من أن تُستقصى، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

ما أضعفك أيها الإنسان!

● إنَّ أضعف ما يكون العبد في حياته في ثلاثة مواطن : عند المرض والكبر ولحظات خروج الروح، فيضعف البدن وتخور القوى، فيهذي لسانه بما قد اعتاده من خير أو شر.
لك أن تتصور - أخي القارئ - من كان مشغولاً بطاعة الله في صحته وقوته وشبابه وهرمه، أتظن أن الله يخذله في تلك المواطن!

لا، والذي نفسي بيده! فالحواثيم ميراث السوابق، وربنا جلّ في علاه شكورٌ رحيم.

- كبرت جدتي وتقدّم بها العمر إلى قرابة التسعين سنة، وبدأ شيء يسير من الخرف يدبُّ إليها، فتذكر أمورًا ماضية، ولم تعد

تعرف أبناءها وأقاربها في آخر حياتها، ولكنها تصلي وتقرأ آيات من القرآن حفظاً وتكثر من الذكر والدعاء.

- كان قلب جدتي معلقاً بالصلاة في قوتها وصحتها، وفي شيخوختها وضعفها وضعف ذاكرتها لا يفتر لسانها عن ذكر الصلاة!، فقد زرتها في إحدى المرات قرابة الساعة الخامسة والنصف عصرًا تصلي على غير وضوء، ولا استقبال قبله، ولا وقت صلاة.

- وفي الليل لها شأن آخر: فقد كانت تستيقظ في الليل عدة مرات تسأل الخادمة: أذن؟ صليت؟ صلوا؟.

• قال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ»^(١). وكذلك المرأة إذا كان قلبها معلقاً بالصلاة يُرجى أن تكون من هذا الصنف.

وفاتها :

• مهما طالت حياة الإنسان فإن الموت آخر المطاف في رحلة هذه الحياة الدنيا.

**كؤوس الموتِ دائرةٌ علينا
وما للمرءِ بدٌّ من نصيبِ**

(١) رواه البخاري برقم (١٤٢٣)، ومسلم برقم (١٠٣١).

- تُوفِّيَتْ جدتي وعمرها قرابة الثلاث والتسعين سنة قَضَتْها في عمل صالح، وقربة إلى الله، حياة جهاد وكفاح وتضحية، سرعان ما انقضت وطُويَتْ، وأحسبها ممن قال فيهم **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**: «**خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»^(١).

- كانت تقول عن سرعة مرور الأيام والشهور والأعوام عليها: «كأنها منام ليل».

- تُوفِّيَتْ على فراشها في غرفتها الساعة الثانية ظهراً، فما راع من كان عندها إلا وقد انسلَّت رُوحها بيسر وسهولة، وهذا مصداقُ ما أخبر به النبي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند خروج روح المؤمن أنها تخرج كما تخرج القطرة من فيء السقاء ليُسَرَّ خروجها - ولا نزكي على الله أحداً -.

**ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام**

وقد ذكر من حضرها أحوالاً تسرُّ بعد تغسيلها؛ فالوجه قد استدار واستنار، وبشرة وجهها خلت من التجاعيد، وكأنها بشرة فتاة صغيرة!.

(١) رواه الترمذي برقم (٢٣٣٠).

وَصَلِّي عَلَيْهَا صَلَاةَ الْمَغْرِبِ لَيْلَةَ الْوَاحِدِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ
 عَامَ ١٤١٧ هـ - رَحِمَهَا اللَّهُ - وَمَا زَالَ مَنْ يَعْرِفُهَا يَشْهَدُ لَهَا
 بِالْخَيْرِ، وَمَا زَالَ الْأَبْنَاءُ وَالْأَحْفَادُ يَتَذَكَّرُونَ سِيرَتَهَا الْعِطْرَةَ إِلَى
 يَوْمِنَا هَذَا - أَحْسِبْهَا وَاللَّهُ حَسِيبُهَا - أَنْ ثَنَاءَ النَّاسِ وَشَهَادَتِهِمْ لَهَا
 مِنْ عِلَامَاتِ حَسَنِ الْخَاتِمَةِ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ أُنِّيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا
 وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أُنِّيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ
 اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي
 الْأَرْضِ»^(١).

●● أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَنَا بِهَا وَوَالِدَيْنَا فِي دَارٍ يَدْخُلُهَا أَهْلُهَا وَهُمْ
 يَقُولُونَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ
 الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا

لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤ - ٣٥].

٢ - سارة القاسم

عمّة والدي

«الوَحَادَةُ عِبَادَةُ»

٢ - سارة بنت محمد القاسم(*)

عمّة والدي : (سارة) تلك المرأة العابدة الزاهدة التقية، ذات الخُلُق الحسن.

تتصف بالحكمة والشجاعة وإدارة المواقف.
واصلة لرحمها، تُحبُّ الأنس والطرافة.
أحبّت الجميع فأحبُّوها.

حياتها الاجتماعية :

- تزوجت وهي صغيرة، ولم تنجب إلا ابنة واحدة، كانت أنسها في الحياة.

من المواقف مع هذه الابنة : أن عمتي - في شبابها - حجّت حجة الإسلام على الإبل - وسيلة التنقل آنذاك - استغرقت الرحلة من الرياض للحج شهرين كاملين، وقد أودعت ابنتها الوحيدة - ذات الأربع سنوات تقريباً - عند أهل زوجها.
لم يكن في ذلك الوقت وسيلة اتصال للاطمئنان على ابنتها، فالشوق يلثمه الصبر، وفي الرؤى أحياناً سلوة، فقد كانت عمتي

(*) قرأت سيرتها على الفاضلة زوجة أخيها عبدالعزيز، وزودتني ببعض الإضافات شكر الله سعيها.

في سفرها ترى ابنتها في المنام كل ليلة مذ سافرت، ثم انقطعت عنها الرؤيا فظنّت أنّ ابنتها ماتت.

ولما رجعت من الحج فإذا الابنة حيّة تُرزق، لكن ذكروا لها أنها فقدتها فقدًا شديدًا فلم تعد تشتهي الطعام أيامًا، ولما ذهبوا بها إلى جدتها لأمرها وخالتها؛ سرّت البنت ونشطت وأكلت، وهذا سر انقطاع رؤيتها في المنام؛ فقد قال **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «**الخالة بمنزلة الأم**»^(١).

- مرت الأعوام

وبلغت البنت ثمانية عشر عامًا، قدّر الله أن تتوفى هذه الابنة في المستشفى، وكانت عمتي مرافقة لها، فكانت صابرة محتسبة لوفاة قرة عينها، تسترّج أذكار المصيبة، تقول: أيقنت مع هذه الأذكار أنّ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ **وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ** [الرحمن: ٢٦-٢٧].

- لم تصدق الممرضات المصريات - العاملات في المستشفى آنذاك - أن هذه المتوفاة ابنتها لما رأوا من صبرها وثباتها، فطلبن من عمتي أن تقسم بالله العظيم أن هذه المتوفاة ابنتها، فأقسمت لهنّ بالله أنها ابنتها (الوحيدة).

(١) رواه أبو داود برقم (٢٢٨٠).

ومن شدة حبها لهذه الابنة - أسأل الله أن يجتمعا في جنته -
تحدثنا عن دقائق تفاصيل حياتها والساعات الأخيرة من وفاتها،
وكانها تُوفيت بالأمس!

قوة ذاكرتها :

- كانت تمتاز بقوة الذاكرة وسرد الوقائع والأحداث بدقة
عجيبة؛ لا يكاد يخفى عليها ميلاد الصغير والكبير من أقاربها، بل
وتاريخ زواج فلان وفلان!.

نعم الأخ :

• الأخ هو السند والعضيد لأخته، هو شخص تتكى عليه عند
الملّات.

الأخ يعني أن ألمك هو ألمه، وفرحك هو فرحه.

الأخ زينة في الرخاء، وعُدّة عند البلاء.

مهما طال العمر وفسح في الأجل يبقى الأخ الكبير هو الأب
الثاني لأخته.

- لما توفي زوج عمتي رحلت للسكن عند شقيقها (عبدالعزیز)

الذي كان نعم الأخ، بل كان بمثابة الأب والأخ والزوج
والصديق، فقد كان بينهما حُبًّا وألفةً قلَّ أن تجد في هذا الزمان
أخًا لأخته كعبدالعزیز لسارة، كيف به وقد اشتدت حاجتها إليه
بعد أن أصبحت أرملة، والساعي على الأرملة مأجورٌ كما ورد في

الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمُسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، وأحسبه قال : « كَالْقَائِمِ لَا يَفْتَرُ ، وَكَالصَّائِمِ لَا يَفْطُر » ^(١).

- له زوجتان لا تطيب نفسه إلا أن تتناول أخته سارة معه وجبة الغداء يوميًا سواء كان مقامه عند الزوجة الأولى أو الثانية، أما وجبة العشاء فهي لا تتناول العشاء أبدًا، تحب أن تنام وهي (خفيفة) على حسب ما ذكرت.

- وإذا زارت أبناء أخيها وباتت عندهم يومين أو ثلاثة أتى إليهم وأرجعها معه إلى بيته، تشتاق إليه ويشتاق إليها، ولسبب آخر أفصحت عنه وهو أن كثرة خلطتها مع الناس تقلل من قراءة وردها اليومي من القرآن الكريم.

- ومع ما هي فيه من إكرام وتقدير في بيت أخيها إلا أنها لا تحب أن تكون ضيفًا ثقيلًا على زوجة أخيها، فهي تشاركها في إعداد طعام الغداء بما تستطيع، وكانت تخطط ملابسها بنفسها وتغسلها، ولا تحب أن تكلف على أحد شيئًا فكسبت ود الجميع.

(١) رواه البخاري برقم (٦٠٠٧).

لِلنَّسَبَاتِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ»^(١)، قال الفضيل : أدركت أقوامًا يستحيون من الله من طول الضجعة^(٢).

• وقال الإمام الذهبي : فأعلى مقامات العبد من كان بكاءً بالليل، بسامًا بالنهار^(٣).

حالتها مع القرآن :

• القرآن الكريم لا يمله الأتقياء، ولا يشبع منه العلماء، كيف وهو يشفع لصاحبه يوم القيامة، قال ﷺ : «**اقْرَأُوا الْقُرْآنَ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**»^(٤) كيف وهو مبارك على قارئه كما قال أبو هريرة رضي الله عنه : «**إِنَّ الْبَيْتَ لَيَسَّعُ عَلَى أَهْلِهِ وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ؛ أَنْ يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ ، وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيَضِيقُ عَلَى أَهْلِهِ وَتَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ وَيَقِلُّ خَيْرُهُ؛ أَنْ لَا يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ**»^(٥).

• وقال بعض المفسرين : «اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات في الدنيا تصديقًا لقوله تعالى : ﴿**كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ**﴾»^(٦).

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٤٩)، صحيح الجامع برقم (٣٩٥٨).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/٢٣٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/١٤١).

(٤) رواه مسلم برقم (٨٠٤).

(٥) رواه الدارمي برقم (٣٣٠٩).

(٦) العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٢/٥٣١).

- كانت عمّتي تقرأ يومياً خمسة عشر جزءاً من القرآن الكريم، وتقلّ قراءتها إلى ثلاثة أجزاء عندما تبيت عند أبناء أخيها لجلوسها معهم واستئناسهم بحديثها، لذا كانت تحرص أن لا تطيل المكوث عندهم - كما أسلفت -
وكانها تقول بلسان حالها :-

**إذا مضت الأوقات في غير طاعة
ولم تك محزوناً فذا أعظم الخطب**

- وكانت تواظب على قراءة سورة الزُمر والسجدة والمُلك قبل النوم لورود الأحاديث عن النبي ﷺ^(١).

- وقد اكتسبت من كثرة تلاوة القرآن الكريم استحضارها للآيات في مواطنها، ومن ذلك:

- تحدثنا في يوم من أيام الصيف عن طول النهار وقصر الليل، فتلت هذه الآية : ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور : ٤٤].
- وأرادت ذات مرّة النوم لوحدها في فناء بيت أقاربها، فاستوحشوا أن تنام بمفردها، فتلت عليهم هذه الآية : ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء : ٤٢].

(١) كان ﷺ لا ينام حتى يقرأ (بني إسرائيل) يعني سورة الإسراء و (الزمر) وكان ﷺ لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك، رواه الترمذي برقم (٣٤٠٥) (٢٨٩٢).

• ورأيُها ذات مرّة تقلّب في يدها شيئاً، تعجّبت من دقة صنع الكفار له وغفلتهم عن الآخرة، فتلت هذه الآية : ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم : ٧]، ولكأنّي ما سمعتُ بهذه الآية إلا الساعة!

حرصها على تطبيق السنة :

كانت عمّي حريصة على تطبيق السنن الواردة عن نبينا ﷺ ومن ذلك الاحتفاء، فقد ورد في حديث فضالة رضي الله عنه : كان النبي ﷺ يأمرنا أن نحتمي أحياناً^(١)، أي : نمشي حفاة حيناً بعد حين، تواضعاً وكسراً للنفس.

من دُرر كلامها :

• قال بعض السلف : اقتربوا من أفواه الصالحين فإنها تنطق بالحكمة.

- هذا ما رأيناه من عمّي؛ كان لها بعض العبارات الرصينة التي هي بمثابة حكم ودروس قصيرة، منها :

(١) رواه أبو داود برقم (٤١٦٠)، وقد ذكر الشيخ محمد بن عثيمين أن الرجل إذا كان قدوة في بلده ومشهوراً بالعلم، فإنه يمشي حافياً أحياناً أمام الناس، لأنهم يعلمون بذلك أنه من السنة، أما إذا لم يكن الرجل كذلك، وستتاله الألسن فإنه يمكن أن يكتفي بفعلها في بيته، أو حيث لا يراه الجهال.

• «الْوَحَادَةُ عِبَادَةٌ»^(١) :

يعني أن المسلم العابد عندما يكون لَوْحِدِهِ يتفرغ للعبادة أكثر مما لو كان مع جماعة.

• «إكرام النفس هداها» :

الشائع عند بعض الناس : إكرام النفس هواها، والحقيقة أن أعظم إكرام للنفس إكرامها بالطاعة، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُؤِنَّ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج : ١٨].

• «الله لا يخزينا» :

تردُّ بها على من تسمعه من العوَّام يقول : (يا خزياه).
وما أجمل هذه الدعوة فقد حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله : ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء : ٨٧]. فانتفاء الخزي يومئذ يستلزم الكرامة.

• «من حِيلِي إلى رحمة ربي» :

تصحح على بعض كبيرات السن اللاتي يدعين بلهجتهم العامية : (من حِيلِي إلى قبيري)^(٢)، فالقبر إما روضة من رياض

(١) مقصدها : ترك الخلطة الدنيوية إذا طال بها المجلس، وإلا ففي الحديث عنه ﷺ : (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) رواه الترمذي برقم (٥٢٠٧)، فللخلطة منافع جمّة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعيادة المريض و...

(٢) (من حِيلِي) : أي من نشاطي وقوتي وخدمتي لنفسي (إلى قبيري) : تصغير كلمة قبري.

الجنة أو حفرة من حفر النار.

• «كثير الحركة» :

كانت متفائلة في اختيار ألفاظها، تنهى الأم أن تصف ابنها بأنه (شقي) لبغضها لمعنى (الشقاوة)، وتستبدلها بأنه كثير الحركة، وكثيراً ما كانت توصي من كان ابنها كثير البكاء؛ بالتهليل في وجهه.

حجابها :

• الحجاب فرضه الله جلّ وعلا من فوق سبع سموات، أمراً به نساء المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابٍ﴾ [الأحزاب : ٥٩].

فعلى المسلمة الستر والحشمة وأن يكون حجابها على الشروط التالية : لا يشف - لا يصف - لا يكون ملفتاً للنظر.

- كانت عمّتي شديدة الستر؛ شامخة بحجابها، مزدانة بحيائها، تتدثر بعباءة ثقيلة قد خاطت فتحة اليدين حتى لا تخرج يداها أبداً، وقد كانت تشابه والدتها في الستر والحشمة.

- فمن المواقف لوالدتها - رحمها الله - الكبيرة في السن : أنها ألتمتها أذنّها، فلما ذهبت إلى طبيب الأذن والحنجرة، طلب منها أن يكشف على أذنّها فغطّت وجهها وأخرجت أذنّها فقط، فطلب منها الطبيب أن تكشف وجهها من جهة (الأذن) فسال

الدمع من عينيها!

يا حسرة على بعض بنات المسلمين وتساهلهن في الحجاب!
هذه امرأة كبيرة من القواعد تبكي عندما طلب منها الطبيب
- لضرورة - كشف جزء من وجهها، كيف بمن تتعمد إظهار
وجهها وزينتها للرجال؟! إلى الله المشتكى!

ما أجمل الوفاء :

- حججتُ معها في إحدى السنوات، وأمرت من يذبح لها
الأضحية أن تكون عنها وعن والديها وابنتها وزوجها (وزوجة
خالها)... ثم أثنتُ على زوجة خالها ودعتُ لها بالرحمة، وذكرتُ
لنا أنها قد أقامتُ عند خالها فترة من الزمن وهي صغيرة فأحسنتُ
زوجة خالها وفادتها وأكرمتها، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان..

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْذَمُ جَوَازِيَهُ

لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

يا لروعة النقاء في قلوب الأتقياء!

ويا لجمال الوفاء للأحياء، فكيف بالوفاء لمن آل إلى الفناء!

وصدق ﷺ : « **وإنَّ حسن العهد من الإيمان** »^(١).

صبرها وتجملها :

- كانت عمتي صبورة شجاعة :

١ - حدثتني بموقف قديم حصل لها وهي في ريعان شبابها،

(١) رواه الحاكم برقم (٤١).

لما قدمت إليها ابنة خالتها - وهي أم لأربعة أبناء - لتوليدها(*)
قالت :

- تعسرت ولادة ابنة خالتي، فكانت تمشي في أرجاء المنزل
لعل المشي يسهل أمر الولادة، وكنتُ أعمل الغداء، قالت وقد
حلّت بها شدة وكرب عظيم :- هذه ليست الولادة التي أعرفها!!
قلت : (يسهل الله)!.
وبعد قليل ...

سمعتها تنطق بالشهادة! فأقبلتُ إليها مُسرعة فإذا هي ممدّدة
على الأرض، وقد فاضت روحها - رحمها الله - تيقنتُ وفاتها
فأسدلتُ عليها اللحاف، إنّ الله وإنا إليه راجعون.
استرجعت عمتي بقلب مؤمن راضٍ بقضاء الله وقدره، ورغم
شدة الموقف إلا أنها تجلّدت وصبرت وعادتُ لإكمال بعض
مهام منزلها إلى أن جاء زوج المرأة وبلغته الخبر، وعزّته في
زوجته.

عمتي لها قلب يحزن كما نحزن، ويتألم كما نتألم، ولكن الله
حباها قوة إيمان وصبر وتجلد ورباطة جأش.

أَغْرَكَ مِنِّي فِي الرَّزَايَا تَجَلْدِي
وَلَمْ تَذِرْ مَا يُخْفِي الْفَوَادُ الْمَلُوءُ

(*) قبل أن تُفتح المستشفيات.

٢ - توفيت والدتها - رحمها الله - ليلاً وهي في بيتها، وإليك تفصيل ما حدث كما روته لي :

لما توفيت أُمِّي حزنت على فراقها، فلم أنم تلك الليلة؛ فقد كنتُ أضُمُّها على صدري - تُهدِّئ روعة تضطرم في صدرها - ، وأدعو : «اللهم آجرني في مصيبي، واخلفني خيراً منها»، كنت أرى المصاب جليلاً، والخطب عظيم، ولكن حينما أدعو وأكرر «اللهم لا تجعل مصيبي في ديني» يهون عليّ مصابي في وفاة أُمِّي.

وَكُلُّ كَسْرٍ لَعَلَّ اللَّهَ جَابِرُهُ

وما لكسرِ قناةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

وصدقت : فمصيبة الدِّينِ أعظم المصائب، وأشدُّ الرزايا.

كُلُّ الْمُصِيبَاتِ إِنْ جَلَّتْ وَإِنْ عَظُمَتْ

إِلَّا الْمَصِيبَاتِ فِي دِينِ الْفَتَى جَلُّ

وفي ضحى الغد غسّلتُ والدتها وكفّتها وودّعتها على أمل اللقاء في جنّات عَدْنٍ بإذن الله، فلولا أمل اللقاء لتقطّعت الأكباد من حرّ الفراق.

٣ - لما توفي عمِّي الأكبر (عبدالله) - رَحِمَهُ اللهُ - كانت هي من طلبت أن تبْلَغ والدته (جدّتي) خبر وفاته، بلغتها ولقّنتها كلمات الاسترجاع، فكانت جدّتي لا تنسى لها تذكيرها بالصبر

والاسترجاع عند الصدمة الأولى كما قال ﷺ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(١).

٤ - أصابها ألم شديد وهي تصلي، حدثني به :
قالت : كنتُ أصلي صلاة الظهر فأغمي عليّ، فما استفتتُ
إلا والطبيب عند رأسي، وأنا أرحبُ بالموت !.
قلت لها وأنا في ذهول وتعجب : يا عمتي، ألا تخافين من
الموت ؟ ألا تخافين من القبر ؟

قالت : ولم أخاف ؟! (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ)^(٢).
لُجِمْتُ، وكأني أسمع الحديث لأول مرة !.
لسان حالها :

وما ضرني أني إلى الله صائرُ
ومَنْ هو مِنْ أهلي أبرُّ وأرحمُ

(١) رواه البخاري برقم (١٢٨٣).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٥٠٧)، وتمامه : قال ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ: (لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرُضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ).

هكذا المؤمن المستعد للقاء ربه يحب أن يلقي ربه محسنًا
الظن به بأن يثيبه على ما قدّم من عمل صالح، والله سبحانه هو
البرّ الرحيم.

٥ - أصيبت بورم صغير في رأسها، وفي بادئ الأمر لم تخبر
أحدًا، فقد كانت تزقي نفسها بالقرآن الكريم، فإذا رقت نفسها
سكن، وإذا غفلت ازداد حجمه.

ولما أصبح هذا الورم يخرج منه صديد فيتسخ منه خمارها -
الذي تلفه على رأسها - حينئذ طلبت من قريب لها أن يذهب بها
إلى المستشفى، حرصًا منها على كمال طهارة اللباس في الصلاة.
وفي مستشفى الملك خالد الجامعي....

تبيّن بعد الفحص الطبي أن في رأسها وصدورها ورم، ولا بد
من استئصاله.

وافقت على استئصال ورم الرأس فقط، أما ورم الصدر فأبّت
حياءً وسترًا.

- وفي يوم العملية كما روت لي :

أسدل الممرضات اللّحاف على وجهي وجسدي وساقوني
إلى غرفة العمليات، ولما كشفن الغطاء عني؛ أفرعني رؤية
الأطباء لي وأنا كاشفة الوجه!

فقلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أقول ما
قالت مريم : ﴿يَلَيِّنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ [مريم : ٢٣].
الله أكبر!

شق عليها لحياؤها وهي في أواخر السبعينات من عمرها أن
يراها الرجال - الأطباء - ولو في حالة الاضطرار!

وفي غرفة التنويم

جاء الطبيب الهندي الذي أجرى لها العملية ليطمئن عليها،
فطلبت من قريبها أن يسأله عن صلاته، هل يحافظ عليها؟
قال : إنه هندوسي!

هزّها جوابه! ارتعدت، خافت عليه من النار التي توعد الله بها
الكافرين ...

خرجت من المستشفى بعد أيام.

تقول : ما ختمتُ القرآن الكريم بعد العملية إلا وأنا أدعو الله
له أن يفتح علي بصيرته.

فقد أحسن إليها في إجراء العملية و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ
إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن : ٦٠]، فأحسنت إليه بأعظم إحسان؛ وهو
الدعاء له أن ينير الله بصيرته فيدخل في عِداد السعداء في الدنيا
والآخرة.

وفاتها :

- وبعد أعوام ... مرضت عمتي مرضاً شديداً، فهزل جسمها وضعفت، وكانت الآلام لا تبارحها، وهي صابرة محتسبة، وكثيراً ما كانت تلهج بالدعاء أن يُحسن الله خاتمتها، وتعزي نفسها ومن حولها بأن الدنيا لم تصف للأنبياء ولا للمرسلين أتصفوا لنا!
وفي يوم الإثنين من الشهر الخامس لعام ١٤٢٢ هـ، وهي تصلي صلاة الظهر، أطالت السجود وأطالت السجود....
وارتاب أخوها - عمي - من طول سجودها، وإذا المفاجأة!
لقد ماتت وهي ساجدة!

• قال ابن رجب : الخاتمة الحسنة لا تقع إلا لمن كانت سريره حسنة، لحظة الموت لا يمكن تصنعها فلا يخرج إلا مكنون القلب.

- توفيت - رحمها الله - وهي في الثمانينات من عمرها؛
قضته في طاعات وقربات، وختم لها بخاتمة حسنة لطالما دعت
أن يختم الله لها بالصالحات فاستجاب الله دعاءها.

• قال ﷺ : «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ صَلَّى صَلَاةً ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ

تَصَدَّقْ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلُ الْجَنَّةِ^(١).

اللهم إنا نسألك حسن الختام ... رحمها الله رحمة واسعة
وجمعنا بها ووالدينا وذرياتنا في جنّات النعيم.

(١) رواه أحمد برقم (٢٣٣٢٤) قال محققوه : صحيح لغيره.

٣ - مها الذّبل

تلميذتي البرّة

«كم في البلايا من عطايا»

٣ - مها بنت محمد الدُّبَل

ذات يوم ... قرأت قصيدة رثاء^(١) للشاعر الدكتور/ محمد بن سعد الدُّبَل يرثي فيها زوجته التي توفيت^(٢) وتركت له صغيرين (مها وسعد).

من أبياتها المؤثرة :

مَهَا وَسَعْدُ إِذَا نَادَاكَ صَوْتُهُمَا
فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مِنْ لِلْأَصْغَرِ الْغَالِي
لَوْلَا صَغِيرَانِ يَخْتَانِجَانِ رَاعِيَةً
مَا رُمْتُ بَعْدَكَ بِنْتَ الْعَمِّ وَالْخَالِ
أَشْكُو إِلَى اللَّهِ مَا فِي الْكَبِدِ مِنْ كَمَدٍ
فَهُوَ الْعَلِيمُ بِالْحَاجِي وَتَسَالِي
سَبَقَتْ وَالْكُلُّ مَاضٍ حَوْلَ مَصْرِعِهِ
أَفَرَادُ قَوْمٍ وَجِيلٌ بَعْدَ أَجْيَالٍ

- تأثرت بهذه الأبيات كثيراً، وأشفقت على (مها وسعد)، ولم يدر في خلدي أنني سألتقي بـ(مها) في يومٍ ما، بل وتصبح صديقة وأختاً لي لم تلدها أُمِّي.

(١) نشرها في ديوانه (إسلاميات).

(٢) توفيت في حادث وهي في طريقها للحج - رحمها الله - .

اللقاء الأول :

- كُنْتُ معلمة لمادة القرآن الكريم في إحدى ثانويات الرياض، دخلتُ أحد الفصول وبعد أن بدأت بالدرس : قرأت بعض الآيات وناقشت بعض معاني المفردات، جاء دور الطالبات لقراءة بقية الآيات المحددة لهذه الحصة الدراسية، نظرت إلى قائمة أسماء الطالبات لاختيار طالبة تقرأ... وقعتْ عيني على اسم (مها بنت محمد سعد الدبل)!

سبحان الله!

إنَّه الاسم الذي رَقَّ له قلبي وأشفق عليه يومًا ما!!

أهذه مها المذكورة في قصيدة والدها؟!

أين مها الدَّبل؟

رفعتُ يدها، نظرتُ إليها.. وفي خُلدي لها حكاية منسوجة شفقةً ورحمة.

قلت : اقرئي من سورة البقرة آية (...).، قرأتُ مها وأخطأتُ في بعض الكلمات، وكانتُ تحاول ترتيل الآيات.

كانت مها تقرأ، وأنا أنصتُ لها، وقصيدة والدها ماثلة أمامي!! أحسست بشعور الاحتواء لها فغزمت على أن أثني عليها وأشدُّ من أزرها.

انتهتُ من القراءة، أثنيْتُ عليها : «وفقك الله، محاولة جيدة،

لينك تستمعين إلى شريط تسجيل لأحد القراء، بارك الله فيك». لم أعلم أن لهذه العبارة وقعٌ كبير في قلبها! وبعد مدة قصيرة انقطعت مها عن الدراسة، ولم أعد أعرف عن أخبارها شيئًا.

اللقاء الثاني :

بعد سنوات

وإذا بإحدى نساء الجيران تدعوني لاجتماع بعض نساء (الحي) في بيتها. لييت الدعوة...

كان في المجلس قرابة عشر نساء، إحداهن برفقتها ثلاثة أطفال صغار، تسارقني النظر من حين لآخر، كأنها تريد أن تقول شيئًا ما! ثم ابتدأت الحوار معي :
- أنت أستاذة فلانة؟
قلت : نعم.

- لقد درستني في الصف الأول الثانوي، أنا مها الدّبل.
لم أعرفها فقد تغيّرت علي كثيرًا.
- ثم أردفتُ قائلة : لا أنسى يا أستاذتي تشجيعك لي بكلمات ودعوات طيبة بعد أن قرأت آيات من سورة البقرة!
قلت في نفسي : وأنا كذلك لم أنس قصيدة والدك، ولا

قراءتك، ودعواتي لك...

كنت تمثّلين لي حكاية حب وشفقة وحُنو.

- قالت : أنا يا أستاذتي في خير دفين، لقد فقدتُ أُمي وعمري لا يتجاوز السنة والنصف تقريبًا، وتعلمين أن الأم هي الموجه والمرشد الأول، لكن أبشرك بأن دعواتك الطيبة وثنائك عليّ أيقظ ما في داخلي من خير...، أحببت بعدها قراءة القرآن الكريم، ولا أكاد أقرأ تلك الآيات التي أثّنت عليّ فيها إلّا وأتذكر ذلك الموقف معك، فكم كان تأثير كلماتك الطيبة كبيرًا في قلبي. وانتهى الحوار.

أيها المعلمون :

أسجل هذا الموقف مع طالبتني وأنا مترددة أسطره هنا أم لا؟!
- أسأل الله القبول والإخلاص - ليعلم المعلمون والمربّون أن الكلمات الطيبة والدعوات المباركة منكم لطلابكم مما لا تلقون لها بالاً تؤثر في الطلاب أيما تأثير... فلا تبخلوا عليهم!.
ألم يكتب الإمام البخاري - **رحمته الله** - الأحاديث الصحيحة المروية عن نبينا محمد **ﷺ** لما قال شيخه (إسحاق بن راهويه) :
لو جمعتم كتابًا مختصرًا لسنن النبي - **ﷺ** - فوقع ذلك في قلبه^(١)

وشرع في كتابه لمدة ست عشر سنة ثم تلقت الأمة كتابه بالقبول،
وصار كتابه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.

● وكذا الإمام الذهبي - رَحِمَهُ اللهُ - اشتغل بالحديث حتى صار
من أئمة الحديث لما قال له شيخه البرزالي : خطك يشبه خط
المحدثين^(١).

الله العجب!

كم كلمة طيبة - بتوفيق الله -؛ أصلحت أقوامًا، وصنعت
مجدًا، وبنت صرحًا، وخلدت ذكرًا.

فشمروا بالهمة، وأحسنوا الغرس؛ يحسن الحصاد.

● قال بعض السلف : ربّ كلمة لا يلقي العبد لها بالاً يركض
بها إلى أعلى عليين في جوار رب العالمين.

الوفاء وحسن العهد :

● قال ﷺ : « **وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ** »^(٢).

- بعد مدة.

هافتني مها وزارني في بيتي، فما وجدتها إلا وفيّة العشرة،
صادقة الوُد، حسنة العهد، فتوثقت العلاقة بيني وبينها؛ لذا
صرت أعدها الأخت والصديقة.

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (١/٤٢٣).

(٢) سبق تخريجه.

• صفاء السريرة وسلامة الصدر من صفات المتقين، يتحلّى بها عباد الله الصالحين...

قال ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا»^(١).
وسئل ﷺ عن أفضل الناس قال: «مَخْمُومُ الْقَلْبِ صَدُوقِ
اللِّسَانِ» قالوا: يا رسول الله؛ صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم
القلب؟ قال: «هُوَ النَّقِيُّ النَّفِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيٍ، وَلَا غِلٍّ،
وَلَا حَسَدٍ»^(٢).

• ومما يروى في هذا: أنه دخل على أبي دُجانة - رضي الله عنه - في
مرض موته، وكان وجهه يتهلّل، فقيل له في ذلك، فقال: ما من
عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني،
والأخرى كان قلبي للمسلمين سليماً^(٣).

- تمتلكها صدرًا سليماً، وقلبًا طيبًا، وسريرة نقيّة فلا غلّ
ولا حقد، بل هو الحبّ والعطاء ومساعدة الآخرين، وتفريج
كربهم، فمثلها ينذر في هذا الزمان! - أحسبها والله حسيبها -.

(١) رواه الترمذي برقم (١١٦٢).

(٢) رواه ابن ماجه برقم (٤٢١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم

(٣٣٩٧) مخموم القلب : وهو من خمنت البيت إذا كنسته.

(٣) سبر أعلام النبلاء (١/٢٤٣).

رؤيا عجيبة :

- أخبرتني مها برؤيا عجيبة رأتها ...

تقول : لقد توفيت والدتي وأنا صغيرة لا أدرك، فلا أذكرها ولا أعي ملامحها، اشتقت لرؤيتها، دعوت الله وبكيت وألححت في المسألة أن أراها في المنام.

استجاب الله دعائي فرأيت في تلك الليلة : أرضاً خضراء واسعة، وإذا بامرأة شابة ، شعرها طويل ، واضعة يديها على خاصرتها، قربت مني وقالت بالعامية : «رأيتني، خلاص؟» ثم ولّت تمشي في هذه الأرض الخضراء وكأنها (تتبخر) كطفل صغير يلهو فرحاً، ورأيت أشجاراً يتدلّى منها ثمار يستطيع الواقف والقاعد أن يقطف منها، وسمعت صوتاً يتلو هذه الآيات: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَلَيْهِمْ قُطُوفٌ مِّنْ دَانِيَةٍ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٢-٢٤].

وانتهت الرؤيا..

وفي الغد؛ هاتفٌ خالتي وذكرتُ لها الرؤيا، ووصفتُ لها تلك المرأة، فقالت : هذه أمك، هذا وصفها!

بعد ذلك... سألتُ معبر الرؤى عن رؤياي هذه، فقال : إن صدقتُ رؤياك فأملك في الجنة - إن شاء الله - فبكيت وبكى المعبر معي!.

مِخْنَةٌ فِي طَيَّاتِهَا مِئْخَةٌ :

• الله سبحانه عليم حكيم، لا يقضي قضاء إلا وفيه تمام العلم والحكمة والرحمة.

كم في البلايا من عطايا، وكم في المحن من منح!

- قدَّر الله لها هذا الموقف الذي كانت عاقبته حميدة، وإن

كان أوله مكروهاً للنفس ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

- وإليك - أخي القارئ - تفصيله :

طلب منها أناس سلفة قدرها (عشرة آلاف ريال) وهي لا

تملك هذا المبلغ، لكن لحسن خلقها وطيبتها لم تستطع الاعتذار

منهم، فاقترضت المبلغ من قريبة لها، وسلمته لهم بدون توثيق،

وهذا يُعدّ تفريطاً، فقد أرشد الله عباده أن يكتبوا الحق صغيراً كان

أو كبيراً: ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ

أَفْسَظُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومرت الأيام والشهور

أرادت مها من أهل السلفة إرجاع المبلغ، فاتصلت على هاتف

بيتهم وهاتف الأب وهاتف الأم مرات ومرات، ولا مجيب!

أيقنت مها أنها خُدعت، وأن السلفة لن تعود، والله المستعان!

يا حسرة على هؤلاء وأمثالهم..

ليت شعري كيف يطيب لهم العيش وقد أكلوا أموال الناس

بالباطل باسم السلفة؟!، وقد قال ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ يَدِينُ دِينَنَا وَهُوَ مُجْمِعٌ أَنْ لَا يُؤَفِّيَهُ إِيَّاهُ لَقِيَ اللَّهَ سَارِقًا»^(١).

أدركتُ مها أنها أخطأت في عدم توثيق السلفة، وأنه يجب عليها أن ترد العشرة آلاف إلى صاحبتها، ولكن أتى لها ذلك وهي ربة منزل وليس لها دخل شهري!.

فامتنت ببيع بعض الحاجيات للجيران والأقارب حتى جمعت (ثلاثة عشر ألف ريال)، سلمت (عشرة آلاف) سلفة قريبتها، وباقي المبلغ أنفقته في أعمال الخير..

- راقَتُ لمها هذه الفكرة، فاستمرت في البيع، والريع يُصرف في الأعمال الخيرية: فشاركَتُ في تأثيث بيت للفقراء، وحجة عن والدتها المتوفاة، وساهمت بمبلغ في بناء مسجد ومشاريع أخرى.

صُنِعَ الْجَمِيلُ وَفَعَلَ الْخَيْرُ إِنْ أَثَرَا
أَبْقَى وَأَحْمَدُ أَعْمَالُ الْفَتَى أَثَرَا

سبحان مدبر الأمور!.

كان لخديعة السلفة غلق بابِ الوفاء من أهل السلفة، وفتح بابِ خيرٍ لمها ﴿فَقَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

(١) رواه ابن ماجه برقم (٢٤١٠) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (١٩٥٤)، يدين: يستقرض، مجمع: من أجمع، بمعنى عزم.

كم نعمة مطوّية لك
بين أنياب النوائب
ومسيرة قد أقبلت
من حيث ترتقب المصائب

فائدة عظيمة :

• تتحوّل الأعمال الدنيوية المباحة كالأكل والشرب والنوم
والسفر إلى عبادة بالنية الطيبة.

• قال ابن القيم : إنّ خواص المقرّبين هم الذين انقلبت
المباحات في حقّهم إلى طاعات وقربات بالنية^(١)، فما من شيء
من المباحات إلا ويحتمل نيّة أو نيّات حسنة تصير بها قربات
وينال بها معالي الدرجات، وإنما تيسر في الغالب لمن قلبه يميل
إلى الدين دون الدنيا^(٢).

- هكذا كان حالها عندما علمت بهذه الفائدة الجليلة منذ
أن سمعتها عملت بها..

من ذلك :

- قالت لي : إنني والله الحمد أتعبد بسفري المباح في أرجاء

(١) مدارج السالكين ١/ ٨٣، ومن ذلك تناول الطعام بنية التقوي على الطاعة،

إدخال السرور على الحزين والمهموم...

(٢) مختصر منهاج القاصدين للمقدسي، ص ٣٦٢.

بلادي بنوايا عديدة طيبة ليتحول سفري إلى عبادة؛ فأتفكر في آيات الله والنظر في ملكوته؛ قمرٌ منيرٌ، وجبالٌ راسخة، وأشجارٌ يانعة في صحراء قاحلة.. أتأمل صنع الله فيرق القلب لله إخبارًا، ويلهج اللسان تسبيحًا وتهليلًا، فمطيتي الذكر والتفكير، وغايتي رسم البسمة على وجوه عائلتي..

بل لا أكتمك سرًّا أني أصبحت أحبُّ السفر عن طريق البر لأحصل على أجر هذه النوايا الطيبة.

التوسل إلى الله بالعمل الصالح :

في يومٍ ما... كانت نية بعض أفراد عائلة مها السفر للخارج لكنها رفضت تعبدًا لله، فعُدلت السفرة إلى إحدى مناطق المملكة، وهناك ذهبت العائلة إلى أحد الأسواق لشراء بعض الحاجيات بعد صلاة العشاء، أما مها فآثرت الانتظار في ظلام الليل مع (فارس) في السيارة، وأبت النزول لوجود بعض المنكرات في هذا السوق.

كان صغيرها (فارس) الذي لا يتجاوز عمره أربعة أشهر، لا يحرك يده اليمنى منذ ولادته، وقد قرّر الأطباء له جلسات علاج طبيعي. وأثناء الانتظار في السيارة تذكّرت حديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار فانطبق عليهم فتوسّل كل واحد منهم بعمله الصالح فانفجرت الصخرة.

فتوسلتُ إلى الله بعدم دخولها السوق ابتغاء وجه الله لما فيه
من المنكرات أن يُشفي سبحانه ابنها، وألحْتُ على الله بالدعاء
أن يُفرج كربته...

**وارفع يديكَ إلى السماءِ ففوقها
ربُّ إذا ناديتُهُ ما ضيِّعكَ**

وما أن انبلج الصباح إلّا - وبفضل الله - تحركت يد (فارس)
ولم يحتج إلى العلاج الطبيعي..!

- وفي الصباح الباكر بشرتني بها، حمدتُ الله على هذه
النعمة، هناها بشفائه، وقد منَّ الله عليَّ برؤية (فارس) قبل أن
تتحرك يده، وبعد أن تحركت، ورأيت مصداق الدعوة الصالحة
من المرأة الصالحة، فسبحان القريب المجيب، ما خاب من طرق
بابه : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وسبحان الذي جعل لكل شيء قدرًا، وصدق رسوله ﷺ :
«إنك لن تدع شيئًا لله إلّا بدَّلَكَ الله به ما هو خيرٌ لك منه»^(١).

المكالمة الأخيرة !

كانت مها حاملًا في شهرها الثامن، هاتفتني عصر يوم الخميس
وأخبرتني بأن أعراض الولادة المبكرة قد بدأت، وأنها في طريقها

(١) رواه أحمد برقم (٢٣٠٧٤) قال محققوه : صحيح لغيره.

للمستشفى، وهل يجب عليها الصلاة وهي على هذا الحال؟!
وفي المساء هاتفتها لأطمئن عليها، فأخبرتني أنها تنتظر قدوم
طبيبة الولادة للكشف عليها.
ولم أعلم أن هذه المكالمة هي المكالمة الأخيرة التي أسمع
فيها صوت مها!.

وفي غرفة الولادة :

الساعة الحادية عشرة صباحًا من يوم الجمعة الموافق
٢٦/٦/١٤٣٠هـ، تعسّرت ولادة مها، بلغ منها الكرب والشدة
مبلغها، تأخر الأطباء في إجراء العملية القيصرية، أصيبت مها
بنزيف شديد أثناء الولادة احتاجت لنقل دم، لحظات عصيبة،
أغمي عليها ثم أفاقت وذكّرت الله - كما ذكر الطبيب لأهلها -
ثم عاودها الإغماء... وبعدها ذهبت لجوار ربها!
ماتت مها، وأحيا الله بُنيتهَا (جود) التي لم ترَ أمها، ولم ترها
أمها، ليكون تاريخ وفاة الأم؛ هو تاريخ ميلاد البنت، والله الأمر
من قبل ومن بعد....

على ذا مَضَى الناسُ اجتماعٌ وفرقةٌ
ومَيّتْ ومولودٌ وبِشْرٌ وأحزانٌ

نالت مها - رحمها الله - حسن الخاتمة التي طالما تمتتها
وسألت الله أن يرزقها إِيَّاهَا، فأكرمها سبحانه بثلاث مبشرات :

فقد ذكرت الله سبحانه قُبيل وفاتها، وماتت في نفاس، وماتت
يوم الجمعة، وقد قال نبينا ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ابْتِغَاءً وَجْهِ
اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)، وقال ﷺ: «وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمُعِ
شَهِيدٌ»^(٢)، وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ
الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»^(٣).

نرجو الله بمنه وكرمه أن تكون من الشهداء السعداء - ولا
نزكي على الله أحداً -.

● فمذهب أهل السنة والجماعة: أن لا نشهد لأحد من أهل
القبلة بجنة أو نار إلا من شهد له النص، ولكن نرجو للمحسن
الثواب، ونخاف على المسيء العقاب.

وفي مفصلة الأموات :

دخلتُ إلى هذا المكان المهيب الذي سندخله جميعاً مهما
طال بنا العمر أو قَصُر، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران : ١٨٥].
شعور عميق بالرهبة والخوف.

ترى النعش والأكفان والكافور والسدر فيخفت صوتك،

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داود برقم (٣١١١) قال محققوه: حديث صحيح، بجمع: أي في
نفاسها بسبب ولدها أو هي حامل به.

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٨٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٣٧).

وتموتُ ابتسامتك، ، وتصغرُ الدنيا في عينيك، وتلاشى أمنيأتك
الدنيوية، وتفكر في مصيرك فما ثمَّ إلا جنةٌ أو نار!
في مغسلة الأموات.

كانك تقرأ على جدرانها رسالة للأحياء: «استعدّوا قبل أن
تقدّموا عليّ».

أزحنا الستارة..

رأيت (مها) مسجاة على النعش.

شاركت في تغسيلها وتكفينها وفاءً للأخوة في الله.

ودعتها الوداع الأخير.

صغرتُ الدنيا في عيني، ساعات معدودة بين سماع صوتها
وسماع خبر وفاتها.

ثم تغسيلها وتكفينها والصلاة عليها.

انقضى عمرها، وطويت صحيفة عملها، وقامت قيامتها.

كنّا نرجو التلاقي على وعدٍ في يوم السبت، وما علمتُ وما

علمتُ أنّ يوم السبت هو يوم الصلاة عليها.

يا لحقارة الدنيا ونحن نلهث خلفها، فمتى نعي؟!!

قال ابن القيم: كُنْ من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا،

فإن الولد يتبع الأم^(١).

(١) الفوائد، ص ٨٠.

وصية لها لابنتها سارة :-

شعرت بها بتعب في جسدها قبل وفاتها بأسبوعين ، وكأنها أحسّت بدنو أجلها فأوصت ابنتها الكبرى (سارة) رمز البر والوفاء، بوصيتين : أولاهما : تسمية المولودة القادمة باسم (جود).
الثانية : إن تقدم لك يا ابنتي الخطاب فعليك بـ (محمد) - قريبٌ لهم - فهو بارٌّ بأمه.

وبعد مضي ثلاثة أعوام من وفاتها تقدم الخطاب لسارة ومنهم (محمد) فقبلته، وكانت الوصية على وقعها.

وكان أبوهما صالحاً :

بعد مدة أخلف الله على زوجها وأبنائها بخلف حسن، فقد تزوج بامرأة أخرى أحسنت إلى أبنائه، وهي بمثابة الأم لهم، فجزاها الله خيرًا وأحسن إليها.

وما زال أثر التربية الحسنة واضحًا على أبناءها، ف(سارة) ابنتها الكبرى قامت بمسؤولية البيت بعد وفاة أمها، ومن حين لآخر تاتفني للسلام عليَّ عملاً بحديث النبي - ﷺ - : « **إِنَّ أَبَرَ الْبِرِّ صَلََةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وَدَّ أَبِيهِ** »^(١).

أسأل الله أن يجمعنا بمها ووالدينا وذرياتنا وأحبابنا في جنات النعيم.

(١) رواه مسلم برقم (١٩٧٩).

٤ - السجينة بلقيس

«المحبوس من حبس قلبه عن ربه»

«كم في طيَّات المكروه من حِكَمٍ»

٤ - السجينة بلقيس

(بلقيس) شابة نصرانية إفريقية ، قدمت من بلادها (النيجر) إلى مدينة (جدة) مع عصابة لتهريب المخدرات، كانوا ثلاثة رجال وامرأتين.

تم القبض - والله الحمد - على هذه العصابة، وصدر الحكم القضائي بالقصاص على الرجال الثلاثة، بينما حُكم على بلقيس وزميلتها بالسجن عشرين سنة، والتفريق بينهما؛ أودعت زميلتها في (سجن جدة) أما بلقيس فقد أودعت (سجن الرياض) لأمر قد قُدر!

وفي سجن النساء:

- كانت بلقيس تتصف بالعدوانية وسلطة اللسان، الكل يتحاشاها، فعاشت منبوذة من الجميع.

كانت إدارة السجن تنقلها من قسم لآخر عندما تتشاجر مع النزيلات حتى استقر بها المقام في قسم (السريلانكيات) إذ أن هذه الجنسية تميل إلى الوداعة والهدوء.

حدث وراءه حكمة!

- من فضل الله سبحانه أن إدارة التوعية الإسلامية بالسجن قد

وفرت كتب للتعريف بالإسلام للسجينات بجميع اللغات تقريبًا. وفي يومٍ ما طلبت إحدى السجينات السير لانكيات النصرانيات من المسؤولة الدينية في السجن كتبًا عن الإسلام بلغتها، وكالعادة تبقى الكتب الدينية مع السجينة يومين أو ثلاثة ثم تُعطى لأخرى وهكذا... لكن هذه السجينة رفضت إعادة الكتب، وبقيت عندها أسبوعًا كاملاً وهي تقرأ وتعيد وكأن كنوز الأرض بين يديها.

جاءت المسؤولة الدينية وطلبت تسليم الكتب، فرفضت للمرة الثانية، فما كان من المسؤولة إلا أن أخذت الكتب منها (بالقوة). طوال الليل، وبكاء السجينة لا ينقطع... وبلقيس تُراقب الحدث، وقد عجبت من بكائها وإصرارها على بقاء الكتب عندها، وجال في خاطرها أنه لا بد أن وراء هذه الكتب سرًا!!

**فَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ
يَدُقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ**

من يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام :

- في الصباح طلبت بلقيس من المسؤولة الدينية كتبًا عن الإسلام بلغتها... قرأت وقرأت وأحست بشعور غريب من الراحة والسعادة، والرغبة القوية في اعتناق الإسلام.

- تلك النفس الهائجة وجدت سكناً لحيرتها، ورياً لروحها المقفرة.

وكانت المفاجأة !

- أعلنت بلقيس إسلامها، وغيّرت اسمها القديم إلى هذا الاسم، فرح الجميع لها فرحاً عارماً.
سبحانه إذا أراد أمراً هياً له أسبابه!!

تدبير العليم الحكيم :

لقد قاد بكاء تلك السجينة السريلاكية إلى قراءة بلقيس لكتب التعريف بالإسلام ثم اعتناقه!

وَكَمْ لِّلّٰهِ مِنْ تَدْبِيرٍ أَمْرٍ
طَوْنُهُ عَنِ الْمُشَاهِدَةِ الْغِيُوبُ

حدث لا يستطيع القلم أن يسطره، ولا اللسان أن يصفه.
رحلة من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام، من تيه إلى أمان، من موت إلى حياة حقيقية وجنة عاجلة، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

تغيّرت طباع بلقيس من امرأة عدوانية إلى امرأة مسالمة هادئة، فالمسلم كما قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(١).

(١) رواه أحمد برقم (٧٠٨٦) قال محققوه : إسناده صحيح على شرط الشيخين

التحقت بلقيس بمدرسة القرآن الكريم، وحفظت (سنة أجزاء) من القرآن الكريم، وحرصت على تعلّم أحكام الدين، ذاقَت طعم الحياة الحقيقية، ذاقَت طعم السعادة، وصدق الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وما أجمل ما قال ابن تيمية: المحبوس من حبس قلبه عن ربّه، والمأسور من أسره هواه^(١).

جهود بلقيس في السجن :

• قال ﷺ: «وَاللَّهِ لَأَن يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَّكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(٢).

- لما أنقذ الله سبحانه بلقيس من ظلمات الكفر، وقد تجرّعت غصّته، وخاضت وحله؛ أشفقت على غير المسلمين في السجن، فبذلت جهدها في عرض صورة الإسلام وسماحته وعدله ورحمته، إضافة إلى أنها تملك أسلوبًا قويًا مؤثرًا جذابًا، أسلم على يديها الكثير مما دفع بإدارة السجن أن تقيم لها محاضرة في قاعة السجن لغير المسلمين.. وما إن انتهت من المحاضرة إلا وأعلن الكثير إسلامهن، ودوّت القاعة بالتكبير!

(١) الوابل الصيب، ص ٩٦.

(٢) رواه البخاري برقم (٣٧٠١).

تكریم إدارة السجن للمسلمات الجُدد :

- منَّ الله عليَّ بحضور حفل المسلمات الجُدد، منهن من أسلم على يد المَوْفِّقة بلقيس، والآخر على يد داعية أخرى، عجبتُ من هذه المرأة المسلمة الودیعة كيف كانت عدوانية قبل إسلامها كما ذكر لي، وكيف أصبحت الآن بفضل الله ثم دخولها في هذا الدين العظيم.

عجبتُ من سمتها وهديها وبهاء وجهها.

ولا غرو!

فنور الإيمان يُبدِّد ظلمات الكفر، ويجلب الفلاح في الدين والدنيا.

وجاء العفو :

- كان الحكم القضائي على بلقيس - كما أسلفت - عشرين عامًا. كانت أوائل سنوات سجنها جحيماً لا يُطاق : كفر وضلال، وعدوانية وظلم ﴿ظَلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠].

جاء العفو الملكي وشمل بلقيس مع بعض السجينات، فقد أُعطيت نصف المحكومية (عشر سنوات) لحسن إسلامها وخلقها، وحفظها ستة أجزاء من القرآن.

وعادت بلقيس إلى بلادها :

- عادت بلقيس إلى بلادها (النيجر) داعية إلى الله، وافتتحت

هناك مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، سبّحان مقلب القلوب

وَمُصْرَفِ الْأَحْوَالِ، مَدَبَرِ الْأُمُورِ، يَهْدِي مِنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ...
 لبثت في السجن بضع سنين؛ أسلمت وأسلم على يديها
 الكثير، وحفظت ستة أجزاء من القرآن الكريم، وتعلمت الكثير
 من أحكام الدين؛ قال تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ
 فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

لقد خرجت بلقيس من بلدها نصرانية مجرمة بجريمة تهريب
 المخدرات.

وعادت بلقيس إلى بلادها مسلمة وداعية إلى الله!
 وهي رسالة بالآ نياس من هداية أحد، ولا نقط من روح الله،
 فالقلوب بيد الله وحده، قال ﷺ: (إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ
 أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)^(١).

- وما زالت بلقيس وهي في بلادها على تواصل مع بعض
 داعيات هذا البلد تستفسر عن بعض أمور الدين أو ما يُشكِّلُ
 على المسلمات هناك.

اللهم ثبتنا وإياها على الحق، وكن لها مُعِينًا وناصرًا في نشرها
 لهذا الدين العظيم.

(١) رواه الترمذي برقم (٢١٤٠).

٥ - مها السريع

تلميذتي الصالحة

«فضل الرفقة الصالحة»

٥ - مها السريـع

(مها) فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، حظيت بتدريسها في الصف الثالث الثانوي.

رأيت في سيمائها سمت الصالحين، ودأب المتبتلين، حريصة على نوال العلم، مُسارعة في نوافل الطاعات، تنهض في السحر لتناجي ربها، وتُسَمِّر في النهار تلاوةً وذكرًا وصيامًا، تمتلك قلبًا سليمًا، وسريرة نقيّة فلا تحمل غلاً على مسلم - شهد بذلك صويحاتها -.

منزلة الوالدين في الإسلام :

• للوالدين مكانة عظيمة في الإسلام، فقد قرن الله سبحانه حقهما بحقه ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وبرّ الوالدين يكون بطاعتهما في غير معصية الله، وقضاء حوائجهما، والتلطف معهما في القول والفعل.

فمن أسباب التوفيق في الدنيا والآخرة : برُّ الوالدين.

ومن أسباب إجابة الدعاء : برُّ الوالدين، ففي الحديث عن عمر - رضي الله عنه - قال : قال ﷺ : (إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالَ

لَهُ أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّهُ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَفْزِرْ لَكُمْ^(١).

ومن أسباب حسن الخاتمة : برُّ الوالدين، قال سعيد بن المسيَّب : البارُّ بوالديه لا يموت ميتة السوء^(٢).

ومن أسباب دخول الجنة برُّ الوالدين : قال ﷺ : (الوالدُ أوسطُ أبوابِ الجنةِ)^(٣) أي : أنَّ طاعته وعدم عقوقه مؤدِّي إلى دخول الجنة من أوسط أبوابها، وإذا كان هذا حكم الوالد فحكم الوالدة أقوى.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ أَبَوَانِ فَيُضَيِّحُ وَهُوَ مُحْسِنٌ إِلَيْهِمَا إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ بَابَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ^(٤).

وقد كان الأنبياء عليهم السلام بررة بوالديهم، قال سبحانه عن يحيى عليه السلام : ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم : ١٤]، قال بعض السلف : «لا تجد أحدًا عاقًا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا»^(٥).

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٤٢).

(٢) تاريخ ابن معين (٣/ ٢٥٥)، ميتة السوء : الموت على سوء الخاتمة، وقيل المراد بميتة السوء أو مصارع السوء : ما استعاذ منه النبي ﷺ كالهدم والغرق والحرق.

(٣) رواه الترمذي برقم (١٩٠٠).

(٤) المصنف لابن أبي شيبة (٨/ ٣٥٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٠).

برُّها بوالدتها :

- كانت مها عظيمة البرِّ بوالدتها، وخاصة بعد وفاة والدها، وتحملُ والدتها أعباء المسؤولية، وحاجتها إلى من يسندها في هذه الحياة القصيرة، فقد أصبحت تقوم مقام الأب والأم.

• وهذه رسالة إلى كل ابن وابنة فقدا والدهما واشتدت حاجة أمهما إليهما؛ أن يتحملا عنها بعض المسؤولية، وأن يكونا قريين منها أكثر وأكثر.

فضل مجالس الذكر :

• إنَّ من أفضل ما عمّرت به الأوقات، وفنيت فيه الأعمار؛ الاجتماع على ذكر الله، فقد رغب فيها نبينا محمد ﷺ فقال : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ فَيَقُومُونَ حَتَّى يُقَالَ لَهُمْ: قُومُوا قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَبَدَّلَتْ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ »^(١).

وقال الحسن : ما اجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شَفَّعه الله فيهم، وإنَّ أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض، وهم عند الله شافعون مُشَفَّعون^(٢).

في حصة الاحتياط :

دخلتُ على فصل مها، ورغبة في استثمار وقت الفراغ بما

(١) شعب الإيمان للبيهقي برقم (٦٩٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤٩/١٦).

ينفع؛ قرأتُ على الطالبات من كتاب (تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان) وعرّجت على علامات حسن الخاتمة.

لفت نظري شدة انتباهها لما أقرأ، ولم يدر بخلدي أنّها التي كلها أذن صاغية لما أقوله ستموت بعد أيام على حسن خاتمة ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ٣٤].

حادث مفاجئ :

- وفي يومٍ من أيام الربيع، وكعادة كثير من الناس في هذا الفصل الجميل يخرجون لرؤية سيوله واخضرار أراضيها، وتلّون أزهاره، ويتنعمون بلطيف أنسامه، ذهبت معها برفقة عائلتها وخالتها للنزهة.

جلست معها في المقعد الخلفي من السيارة بجوار خالتها التي تجلس عند الباب الأيمن، ثم نزلوا بقرب (غدير ماء) لكن معها وخالتها أصرّتا على تغيير المكان لقربه من الشارع العام.

ونزولاً عند رغبتها ركبت العائلة السيارة (وتبادلت) معها مع خالتها الأماكن لتكون معها عند الباب الأيمن لأمرٍ قد قُدر! انطلقت السيارة إلى مكان آخر، وطوال الوقت ومهما منشغلة بالذكر، ولا تكاد تشارك أحداً في الحديث.

مشيناها خُطَى كُتِبَتْ عَلَيْنَا
وَمَنْ كُتِبَتْ لَهُ خُطَى مَشَاهَا
وَمَنْ كَانَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ
فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا
وما هي إلا دقائق ...

فإذا بشاحنة كبيرة تصطدم بالسيارة من جهة اليمين للمقعد الخلفي (جهة مها).

أصيبت مها بنزيف داخلي، نطقت بالشهادة ورفعت أصابعها السبابة اليمنى واليسرى ثم فارقت الحياة.

وهذا من دلائل حسن الخاتمة - ولا نزكي على الله أحداً -
فقد قال ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).
صُلِّيَ عَلَى مَها من الغد بعد صلاة الجمعة..

وذهبت لتعزية أهلها :

● التعزية : هي حمل المصاب على الصبر، وليس لها ألفاظ مخصوصة، والأفضل أن يعزّي بالألفاظ التي عزّي بها النبي ﷺ ابتته بقوله : «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ ، وَكُلُّهُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَلْتَضَبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»^(٢).

(١) رواه أبو داود برقم (٣١١٦).

(٢) رواه البخاري (٧٤٤٨) .

وقد ورد في فضل العزاء قوله ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعْزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُلْلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

- ذهبْتُ لتعزية أهل مها وذكروا لي أمورًا عجيبة تدل على حسن الخاتمة لولا أنني تأكدت منها من عدة أطراف لما سجلتها هنا، وكلامهم متطابق تمامًا وليس فيه اختلاف..

حسن الخاتمة :

- أتى بـ (مها) إلى مغسلة الأموات وقد رفعت أصابعها السبابة اليمنى واليسرى تشهد بالوحدانية، وأثناء التغسيل نزع دم من أنفها، تشهد المُغسَّلات طيب رائحته، وبعد تكفينها ارتسمت ابتسامة على ثغرها، فيا لله ما أروعها من خاتمة!

فضل الرفقة الصالحة :

- كان مصلى المدرسة روضًا عامرًا - والله الحمد - بالدروس العلمية يوميًا في الفسحة (وقت الاستراحة)، وقد كانت مها من عُمار المصلى؛ تؤدي صلاة الضحى^(٢) ثم تجلس في حلقة الدرس.

(١) رواه ابن ماجه برقم (١٦٠١).

(٢) فضل صلاة الضحى :

• قال ﷺ: «مُرْغَبًا فِي صَلَاةِ الضُّحَى: «صَلَاةِ الضُّحَى صَلَاةُ الْوَابِينَ» صَحِيحُ الْجَامِعِ (٣٨٢٧).

• وقال ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلْ تَسْبِيحَةً صَدَقَةٌ، وَكُلْ تَحْمِيدَةً صَدَقَةٌ، وَكُلْ تَهْلِيلَةً صَدَقَةٌ، وَكُلْ تَكْبِيرَةً صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ

لم تتخلف مها يوماً عن مصلى المدرسة إلا يوم السبت الذي
غُيِّت فيه تحت التراب!

جلستُ في الحلقة مع الطالبات، والحزن قد غشنا لفقد طالبة
صالحة من طالبات المصلى، وهذا حال الدنيا!

فِيَوْمٍ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا
وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

- تبرعت زميلات مها الصالحات وقريباتها بمبلغ لبناء
مسجد لها في خارج المملكة، وأول من بادر بذلك (نورة) طالبة
من طالبات المصلى تبرعت بـ (ريالين) مصروفها ذلك اليوم!!
قال ﷺ: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ»^(١).

بُني لها - بفضل الله - مسجد خارج المملكة يحمل اسمها،
أيادٍ يافعة بذلت، ليبقى الوصال حياً لا يموت!.

صدقة، ونهْي عن المنكر صدقة، ويُجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى
رواه مسلم برقم (٧٢٠).

الحديث يدل على فضل صلاة الضحى، وأن ركعتيها تجزيان عن: (ثلاثمائة
وستين صدقة) على عدد مفاصل الجسم (سُلامى)، وإنما قامت الركعتان مقام
الاجزاء لأن جميع الأعضاء تتحرك فيها بالقيام والقعود فيكون ذلك شكرها،
قال قتادة: ابن آدم! إنما أُنيت مفاصلك للعبادة.

• وأقل عدد ركعات صلاة الضحى: ركعتان، ولا حدٍّ لأكثرها، وتبدأ بعد شروق
الشمس بربع ساعة تقريباً إلى قبل أذان الظهر بعشر دقائق.

(١) رواه الحاكم برقم (١٥٥٩).

الله أكبر... ما صلتى مصلًى ، ولا اعتكف عابداً ، ولا قرأ قارئ القرآن الكريم ، ولا ألقى داعية كلمة في هذا المسجد إلا - وبإذن الله - الأجر العظيم يصل إلى مها!.

• هذا فضل وبركة الأخوة الصالحة :

• ذخّر في الحياة : بالتذكير والإعانة على الخير.

• ووفاءً بعد الممات : بالدعاء والصدقة والوقف والأضحية والحج والعمرة.

قال ابن القيم : وعذاب القبر قد ينقطع عن المؤمن العاصي إن كان يُعذب بسبب دعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج^(١).

• ويستمر الوصال في الآخرة : في شفاعة بعضهم لبعض كما قال ﷺ : « حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشِدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِفْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ ، يَقُولُونَ : رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا ، وَيُصَلُّونَ ، وَيَحُجُّونَ . فَيَقَالُ لَهُمْ : أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ . فَتَحَرَّمُ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِيهِ ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ »^(٢).

(١) كتاب الروح (١/ ٢٧٠).

(٢) رواه مسلم برقم (١٨٣).

قال الحسن : استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة^(١).

شُمُوخُ العَطَايَا :

• إِنَّ العَطَايَا العديدة الطيبة بين المتآخين المتحابين في الله لا تنقطع ...

حَدَّثَ وَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ بِذِكْرِهِمْ

وَأَعِذْ حَدِيثُكَ مَا اسْتَطَعْتَ وَرَدِّدْ

- في موسم الحج، ذكرتُ قصة (مها) لجمع من الأخوات الفلاني معي في الحملة ، فما كان من إحداهن إلا أن تصدقت عنها، واعتمرت أخرى عنها في شهر محرم. سبحان الله!

لم تكونا من أقاربها ولا من صديقاتها، بل لم تريها قط!.
والسرُّ في هذا : هو الحبُّ في الله؛ الذي هو من أجلِّ أعمال القلوب، ومنزلته عظيمة عند الله، قال ﷺ فيما يرويه عن ربّه :
« وَجِبْتُ مُحِبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ،
وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ... »^(٢).

(١) تفسير البغوي (٣/ ٣٩١).

(٢) رواه مالك في الموطأ برقم (٢٧٤٤).

من الموافقات العجيبة :

- ألقى محاضرة على طالبات المرحلة المتوسطة في إحدى المدارس وذكرتهن بتقوى الله وفضل الرفقة الصالحة وتطرقن إلى قصة مها بالتفصيل فتأثرن بسيرتها العطرة. وبعد المحاضرة

بادرتني بالسلام المرشدة الطلائية، وفي وجهها مسحة حزن، وقالت : لقد نكأت جراحي !
قلت : ولم ؟

قالت : أنا خالة مها التي كنتُ معها في السيارة، وهذا الجرح - وأشارت إلى ندبة في أعلى جبينها - من آثار الحادث.
قلت : لعل الله سبحانه أراد لمها خيرًا، فكم شخص ترحم عليها ودعا لها وتصدق عنها بل واعتمر لها... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء...

عطر ذكراها :

- لزلتُ احتفظ بورقة اختبار مها وكراستها وبحثها القيم عن (سيرة الإمام أحمد) وهو بحث لا منهجي اشتركت فيه (اثنتان وعشرون) طالبة، قمتُ بتصحيح الأبحاث، وأما الجوائز فبعد أن تم احضارها للطالبات المشاركات بعد أسبوعين من وفاة مها، تم وضع قيمة شراء هدية مها مع مبلغ بناء المسجد.
أسأل الله أن يجمعنا بمها ووالدينا وذرياتنا وأحبابنا في جنات النعيم.

٦ - نورة الجبرين

(ثمرة الصبر)

«اللهم أنزلني منازل أرضها في الدنيا والآخرة»

٦ - نورة بنت سعد الجبرين

(نورة) امرأة كبيرة سالحة، صابرة على ما أصابها من بلايا وأمراض.

حياتها عامرة بالأحداث والمفاجآت، وحافلة بالدروس والعبر.

حياتها الاجتماعية :

- تزوجت في شبابها من رجل (قطريّ) عقيم لا يُنجب، وعاشت معه في مدينة الأحساء، وسكنت عندها والدتها التي ابتليت بفراق ابنها الوحيد الذي سافر لبلدٍ مجاور لطلب الرزق وانقطعت أخباره سنيناً عديدة، فكانت والدتها تلهج بالدعاء وتُلتح على ربها وخاصة يوم الجمعة أن يرُدَّ الله عليها ابنها، وأن يكون هو الذي ينزلها في قبرها إذا توفيت....

وبعد سنين عاد الابن للأُم الملتاعة ففرحت فرحاً شديداً بعودته بعد فراقٍ طويل، ومكث عندها ثمانية عشر يوماً ثم تُوفيت، فكان هو الذي أنزلها في قبرها!

وبعد وفاة والدته نورة التي كانت أنسها وسلواها، طلبت نورة من زوجها الفراق لظروف خاصة، وانتقلت إلى مدينة الرياض،

وتزوَّجت وأنجبت ثلاثة أبناء توفوا جميعاً عند الولادة، وبعد فترة من الزمن توفي زوجها الثاني.

سكنها وحدها :

- عاشت نورة في بيت وحدها تصارع أعباء الحياة بثباتٍ وصبر.
- حدثتني عن معاناتها في ذلك البيت : أنَّ إحدى غرفه بابها صغير - كعادة بعض البيوت القديمة آنذاك - فكان لا بدَّ أنْ أحني رأسي عند الدخول، وأحياناً أريد الدخول مسرعة لهذه الغرفة، فتضربني حافة الباب على رأسي، كلَّما ضربتني، تألمتُ، وتضرَّعتُ ودعوتُ الله سبحانه بهذه الدعوة : اللهم أنزلني منازل أرضاها في الدنيا والآخرة، اللهم أنزلني منازل أرضاها في الدنيا والآخرة.

**اصبر قليلاً فبعد العُسْرِ تيسيرُ
وَكُلُّ أمرٍ له وقتٌ وتدبيرُ
وللمهيمنِ في حالاتنا نظرُ
وفوقَ تدبيرنا اللهُ تقديرُ**

فضل الدعاء :

• الدعاء من أفضل العبادات، قال ﷺ : «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(١)،

(١) رواه أبو داود برقم (١٤٧٩).

فيه تَضَرَّع إلى الله وافتقارٌ إليه وتذلُّلٌ بين يديه، والله سبحانه يبتلي عباده بعوارض تدفعهم إلى بابه يستغيثون به....

فسبحان من أخرج الدعاء بالبلاء!.

قال أبو الدرداء: أكثرُوا الدعاء، فإن من أكثر قرع الباب يوشك أن يُفتح له^(١).

وملكت نورة بيتًا واسعًا :

- يَسِّرُ الله سبحانه لنورة أن تملك بيتًا وأوصت بأن يكون وقفًا لله تعالى في أعمال الخير بعد وفاتها...

هذه ثمرة دعوتها: «اللهم أنزلني منازل أرضها في الدنيا الآخرة، اللهم أنزلني منازل أرضها في الدنيا والآخرة»..

**وَإِذَا أُبْتُلْتُ بِمَحْنَةٍ لَا تَبْتَسِسُ
فَلْعَلَّ تِلْكَ النُّونُ تَسْبِقُ حَاءَهَا**

رؤيا عجيبة :

- أخبرتني برؤيا رأتها؛ قالت: «رأيتُ في المنام أني في أرضٍ خضراء واسعة، ورأيت فيها رجلاً طويلاً، قلت: من أنت؟ قال: أنا موسى، قلت: عليك السلام».

أذكر هذه الرؤيا التي أخبرتني بها - ولا أزيها على الله -

(١) شعب الإيمان برقم (١١٤٣).

ولعلها من عاجل بشرى المؤمن كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بَدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿﴾ [يونس: ٦٣ - ٦٤].

فُشِّرَت البُشْرَى في الحياة الدنيا: بالرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له، وفُشِّرَت أيضًا بمحبة الناس له والثناء عليه، وكان هذه الرؤيا السارة تنعش قلبها المكلوم وتزهر معه حياتها المدلهمة!!

الصبر نعم الزاد :

- كَبُرَ سَنَ نُورَةٍ وَرَقَّ عَظْمُهَا وَتَكَالَبَتَ عَلَيْهَا الْأَمْرَاضُ فَاضْطَرَّتْ إِلَى الْإِقَامَةِ عِنْدَ بَعْضِ أَقَارِبِهَا، وَكَانَتْ مُحْتَسِبَةً صَابِرَةً عَلَى مَا أَصَابَهَا، شَاكِرَةً لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ، مَوْقِنَةً أَنَّ الْبَلَايَا وَالْأَمْرَاضَ كِفَارَةٌ لِدُنُوبِ الْمُؤْمِنِ وَرَفْعَةٌ لِدَرَجَاتِهِ كَمَا قَالَ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُّ الشَّجَرِ»^(١)، مَوْقِنَةً أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا يَخْلُو مِنَ الْإِبْتِلَاءَاتِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

ثَمَانِيَةٌ تَجْرِي عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ
وَلَا بَدَلَ لِلْإِنْسَانِ يَلْقَى الثَّمَانِيَا
سُرُورٌ وَحُزْنٌ وَاجْتِمَاعٌ وَفَرَقَةٌ
وَعُسْرٌ وَيَسْرٌ ثُمَّ سَقَمٌ وَعَافِيَةٌ

(١) رواه البخاري برقم (٥٦٤٧)، ومسلم برقم (٢٥٧١).

وسمة الصالحين الورع:

- آثرت نورة في السنة الأخيرة من حياتها بعد أن تحسنت صحتها عما كانت عليه أن تعيش وحدها، تتحدّى وحشة الوحدة بأنس الخلوة بالله، فسكنت بجوار قريباتها من بنات العم والخال، فكنّ يتعاهدنها بالزيارة لمؤانستها وإدخال السرور عليها، محتسبات أجر صلة الرحم، فقد قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(١).

وقيّض الله لها إحدى قريباتها أن تتعاهد بها بإرسال وجبة الغداء يوميًا، إلّا أنّ ورع نورة وتقواها أبى عليها إلّا أن تطلب من هذه القريبة أن تستأذن زوجها في إرسال الغداء!

عجبت القريبة من هذا الطلب لِعِلْمِهَا أَنَّ زوجها - وهو أيضًا من أقارب نورة - لا يُمانع، بل يفرح بأن تأكل نورة الكبيرة الضعيفة مما يأكله أهله، ونزولاً عند رغبتها استأذنت زوجها الذي لم يتردد في الموافقة.

الله أكبر!

إنّهُ الورع والخوف من الله أن لا يدخل بطنها إلّا ما كان حلالاً طيباً، فأكل الحلال يعين على العمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

(١) رواه البخاري برقم (٥٩٨٥).

ومن كانت طعمته حلالاً وفقت جوارحه للطاعات، ومن كانت طعمته حراماً عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أم لم يعلم. - إنَّ في ورع نورة درساً وعبرة عظيمة لمن حَذَقَ!، فليتق الله من يأكل أموال الناس بالباطل ولا يُبالي، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أعجوبة قراءتها للقرآن على كبر :

- كانت نورة لا تعرف القراءة والكتابة، وتتمنى أن تقرأ القرآن الكريم.

كانت تحبّه حباً جمّاً، وتحمله بين يديها وتضمه على صدرها، وإذا سألتها أحد : لِمَ تحملين القرآن وأنت لا تقرئين فيه؟ فتقول : أحبه!

• قال ابن مسعود : من أحبّ أن يعلم أنّه يحب الله فليُنظر إلى القرآن، فإن كان يحبُّ القرآن فإنّه يحبّ الله ورسوله^(١).

- وفي سنن الخمسين استطاعت نورة - بفضل الله - أن تقرأ حروف القرآن الكريم، ساندتها رغبتها السامية وهمتها الشامخة؛ إذ طلبت من أحد صغار أقاربها أن يعلمها الحروف الهجائية مقابل (ريال) لكل درس ولكنها لم تتقن الحروف جيداً... تضرعت إلى ربها وافتقرت إليه بدموع الملحين الصادقين أن

يبلغها أمنيته، ثم تنظر لآيات المصحف تعتصر ذاكرتها لعلها تميز الحروف لتقرأ.. تحاول ولم تيأس، بدأت بتذكر الحروف.. وفي مشقة ومجاهدة بدأت في التهجي مع التتعة وسماع القرآن مسجلاً وعبر إذاعة القرآن الكريم.

لعلَّ الله عَلِمَ صدقها ورغبتها في قراءة كتابه؛ ففتح عليها وأعانها ويسر لها مطلبها.

فرحت واستبشرت وعكفت على قراءة القرآن الكريم، وحفظت بعض السور كسورة الكهف ويس والأجزاء الأخيرة من القرآن، وكان أنيسها وجليسها وسلوتها.

وصدق نبينا ﷺ: «**إِنْ تَصَدَّقِ اللهُ يَصْدُقْكَ**»^(١).

(١) سنن النسائي برقم (٢٠٩١)، وتمام الحديث : عن شداد بن الهاد، أن رجلاً من الأعراب جاء النبي ﷺ فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك.؛ فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي ﷺ سبيًا فقسّم وقسّم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسّمه لك النبي ﷺ فأخذه فجاء به النبي ﷺ. فقال: ما هذا؟ قال: (قسّمته لك)، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا - وأشار إلى حلقه بسهم - فأموت فأدخل الجنة، فقال ﷺ: (إن تصدق الله يصدقك) فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: (أهو هو؟) قالوا: نعم، قال: (صدق الله فصدقه) ثم كفته النبي ﷺ في جبة النبي ﷺ ثم قدّمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: (اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً أنا شهيد عليه).

دعاء عجيب :

- كنت أزورها مع أهل بيتي بين الحين والآخر وأستمع بعقب حديثها، وذكرياتها عن الماضي وما فيه من دروس وعبر. في إحدى الزيارات ... أسرت إلينا بدعوة غريبة دعت الله بها وهي : أن لا تموت إلا وقد صلت صلاة العشاء والوتر وتناولت طعام العشاء!

قلنا : أما صلاة العشاء والوتر : فدعوة طيبة، ولكن تناولك لطعام العشاء قبل الموت؟! قالت : يعني أنا لم أحتج إلى أحد يعتني بي (أموت بصحة وعافية).

وكانت وفاتها كما دعت :

- لم يمر على هذا الموقف إلا أيام معدودات. ففي ليلة الأحد من الشهر السادس، عام ١٤١٢ هـ، زارها أحد أقاربها، وكانت في صحة وعافية. صلت صلاة العشاء والوتر وتناولت طعام العشاء معه. وتجاوزها أطراف الحديث ثم أحست بخمول مفاجئ، فقالت له : هذا هو الحق (تعني الموت)، ثم نظقت بالشهادة مرتين، وفارقت الحياة!.

قال ابن القيم : «من كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبه في حال

حياته وجد ذاك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته فيتعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند موته ما لم تدركه عناية من ربه»^(١).

استعدادها للموت :

- كانت - رحمها الله - قد جهزت منذ عشرين سنة (الكفن، والكافور، والسدر)^(٢)، وقد أوصت أن تُغسَل في بيتها من قبل قريباتها.

وأثناء الغسيل...

انبهرت القريبات المُغسَّلات من النور والبهاء الذي في وجهها!.

وأجمع كل من رآها من الأقارب ممن قدموا لوداعها على هذا النور.

ورأيت النور والبهاء في وجهها :

- ولما بلغني خبر هذا النور أسرع لوداعها، ولرؤية النور الذي أشيع عنها.

دخلت المجلس، فإذا هي مسجاة على النعش.

(١) طريق الهجرتين، ص ٣٩٩.

(٢) ليست هذه سنة، فالسلف كانوا يستعدون للأخرة بالعمل وليس بالكفن، لكنه اجتهاد منها - رحمها الله -.

فتحتُ الكفن، ورأيت وجهها، هالني ما رأيت، أجهشتُ بالبكاء.

فوالله الذي لا إله إلا هو رأيت عيناى نورًا وبهاءً أكثر مما قد تخيلت!.

أغلقت الكفن، ثم كشفته مرة أخرى.
إشراق وجهها والنور الذي رأيت لا أستطيع أن أشبهه إلا بالورقة البيضاء، أو نور (النجفة) البيضاء.

لن أنسى هذا الوجه الصبيح ما حييت!.

• قال عليه السلام: «كَلِمَةٌ لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ مَوْتِهِ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ

كُرْبَتَهُ وَأَشْرَقَ لَوْنُهُ»، قال عمر رضي الله عنه: هي كلمة أمر الله بها (لا إله إلا الله) ^(١).

أسأل الله أن يجمعنا بها في جنته، وأن يكون آخر كلامنا من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله.

(١) رواه الحاكم برقم (١٣٣٧)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

هيا الجبرين «أعجوبة الزمان»

قال ﷺ : «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ» ^(١).

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥١٦).

٧ - هيا بنت سعد الجبرين(*)

(هيا) امرأة تحمل صفات نادرة قلَّ أن تجدها عند النساء.
ذات دين وصلاح وثقى وعفة لسان....
القرآن لها أنيس، والصبر لها جليس.

حياتها الاجتماعية :

تزوجت مرتين، ولم تنجب ثم بعد وفاة زوجها الثاني كانت
تنتقل بين بيوت أقاربها.

برنامجها اليومي كما رأيته :

- كانت تستيقظ في الصباح قرابة الساعة الثامنة والنصف تتناول
طعام الإفطار ثم تصلي صلاة الضحى ثم تقرأ القرآن الكريم
حتى أذان الظهر.
- بعد صلاة الظهر تتناول طعام الغداء وربما أخذت قسطاً من
نومة القيلولة.
- وبعد صلاة العصر تقرأ ورداً من القرآن الكريم لا تتركه أبداً
حتى لو ناولناها كوباً من الشاي لا تشربه حتى تتم وردها
المعتاد.

(*) وهي أخت لنورة التي سبق ذكر سيرتها.

- بعد ذلك تجلس مع مَنْ يأتِيها، ولربما خرجنا لزيارة أو نزهة فترافقنا، وبين الحين والآخر تحيك ملابسًا للفقراء.

إنها تقدّم لآخرتها ولم تنس نصيبتها من الدنيا عملاً بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [الفصل: ٧٧].

عفة لسانها :

• قال عليه السلام : «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

• قال الفضيل : أشدُّ الورع في اللسان^(٢)، وقال يونس بن عبيد: خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما من أمره: صلاته ولسانه^(٣).

- كانت هيا تنتقل بين بيوت الأقارب، بعد وفاة زوجها - كما أسلفت - فلا تفشي لأحد من الأقارب سرّاً أو تذكر مشكلة حصلت في البيت الذي قدمت منه، أقصى ما تقول لي عند قدومها من أحد الأقارب إلى بيتي : يسلمون عليك آل فلان. وهذا والله ما تُغبط عليه : عفة اللسان وحفظ أسرار البيوت،

(١) رواه البخاري برقم (٣١٠٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٤).

(٣) حلية الأولياء (٣/ ٢٠).

قال ابن الجوزي : «من سرح لسانه في أعراض المسلمين واتبع عوراتهم أمسك الله لسانه عن الشهادة عند الموت»^(١).

- كانت هيا لا تغتاب أحداً، ولا تتحدث كثيراً في المجالس، وكأنها أخذت بوصية العابد أيوب السخيتاني عندما قال له رجل : أوصني، قال : أقلّ الكلام^(٢).

- ولا تراها تسأل عما لا يعينها، وهذا من حسن إسلامها كما قال ﷺ : «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ»^(٣)، بل إذا سمعت في بعض المجالس تخميناً من بعض النساء : فلانة كأنها حامل، آل فلان كأن عندهم زواج، ردت عليهم بالعبارة العامة : (بيرخص العلم)^(*).

حالتها مع القرآن الكريم :

- حدثتني أنها كانت تقرأ يومياً في شهر رمضان (خمسة عشر جزءاً) من القرآن الكريم، فتختتم كل يومين أخذت على هذا زمناً، ثم أحست بالتعب والصداع في رأسها - خاصة أن قراءتها بطيئة - فخففت على نفسها القراءة إلى (عشرة أجزاء) يومياً، فتختتم كل ثلاثة أيام.

(١) بحر الدموع ، ص ٢٠.

(٢) حلية الأولياء (٣/٧).

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٣١٧).

(*) يعني سيُعرف الأمر ويُشتهر بعد حين، فلا حاجة إلى تقصّي الخبر.

- ولكثرة تلاوتها للقرآن الكريم في شهر رمضان وغيره: كانت تسرد علينا أسماء سور القرآن مرتبة من سورة البقرة إلى سورة الناس والعكس أيضًا، ولا تخطئ في اسم سورة أو تقدم سورة على أخرى!، وهذا محض توفيق وفضل من الله سبحانه، فقراءة كتابه فضل منه سبحانه، فمن اعتادها وألفها أعانه الله ويسر له ذلك، كما قال ابن القيم: لا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزًّا، ولا يزال العبد يألف المعصية ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزًّا^(١).

الصدقة من عمل يدها :

- الصدقة عبادة جليلة كما قال ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»^(٢)، أي برهان ودليل على صدق إيمان صاحبها.
- والكسب من عمل اليد شأنه عظيم كما قال ﷺ: لما سُئِلَ: أي الكسب أطيب؟ قال «عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ»^(٣)، وقد كانت حفصة رضي الله عنها مع علو شأنها تعمل بيدها وتتصدق من كسبها.

(١) الجواب الكافي، ص ٥٦.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٢٣١).

(٣) رواه الحاكم برقم (٢٢٠٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

- كانت هيا تخطط الملابس والمفارش وتصنع نوع من الطيب (البخور) وكحل الأثمد وتطحن أوراق الحناء والسدر وتبيعه على الأقارب والمعارف سنوات عديدة، كانت حصيلة عمل يدها شراء منزل في غرب الرياض مكون من ثلاثة أدوار جعلته وقفًا لله تعالى في أعمال الخير.

● وهذه رسالة لمن أنعم الله عليه بالمال؛ بشراء أوقاف له يبقى نفعها وأجرها المستمر في حياته وبعد مماته، وله في صحابة نبينا ﷺ أسوة، قال محمد بن زرارة: ما أعلم أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر من المهاجرين والأنصار إلا وقد وقف من ماله حبسًا لا يشتري ولا يؤرث ولا يوهب حتى يرث الله الأرض ومن عليها^(١).

حياكة الملابس والتصدق بها :

عُرف الإمام المحدث القاضي أبو عبد الله محمد المرزوي : بالخياط، لأنه كان يخطط للأيتام والمساكين حِسْبَةً، كان قاضيًا في النهار، وإذا جاء الليل تفرغ لخياطة ملابسهم ويعدها صدقة^(٢).

- طلبت هيا من خياط نسائي في زاوية بيتها - في حياة زوجها - أن يعطيها ما يتبقى من أقمشة فائضة عنده لتخطيها ملابس للصغيرات الفقيرات.

(١) أحكام الأوقاف للخصاف ، ص ٦.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٥٦٥).

بل أحيانًا تنقض (أكياس الدقيق) وتخطها من جديد ثيابًا للرجال.

فإذا انتهت من خياطة العدد الكبير من ملابس الصغيرات وثياب الرجال تصدّقت به على الفقراء في خارج البلاد.

**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَصْغَرُهُ
أَحْسِنْ فَعَاقِبَةُ الْإِحْسَانِ حُسْنَاهُ**

مرضها :

- قدّر الله أن تُصاب هيا بجلطة في الدماغ جهة اليمين، فتسبب ذلك بالشلل الكامل في جسدها، وأثر ذلك على لسانها فلم يعد أحد يعرف ما تقول، ولكن بفضل الله ثم العلاج الطبيعى تحسنت حالتها، فأصبحت تحرك يدها وقدمها اليسرى...

وتمت المفاجأة!

انطلق لسان المرأة التقيّة بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؛ فكانت تصلي وتذكر الله وتدعو بـ(لا إله إلا الله)، حتى حديثها مع الناس عندما تجيب أحدًا نفيًا أو إثباتًا تهزُّ رأسها بـ(لا إله إلا الله)، وهكذا الحال معها.

فكلُّ كلامها بكلمة التوحيد، وبقيت على ذلك عشر سنوات.

تعظيمها للصلاة :

• قال ﷺ : «**وَالصَّلَاةُ نُورٌ**»^(١)، قال الشيخ محمد بن عثيمين
رحمته الله : «الصلاة نور للعبد في وجهه وفي قلبه وفي قبره وفي حشره،
ولهذا تجد أكثر الناس نورًا في الوجوه أكثرهم صلاة وأخشعهم
فيها لله»^(٢).

- كان قلب هيا معلقًا بالصلاة، ما إن تسمع الأذان إلا وتتيّم
بالتراب القريب منها.

- تكبر تكبيرة الإحرام بيدها اليسرى ثم تشرع في قراءة سورة
الفاتحة : لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ثم تخفض للركوع قائلة : لا
إله إلا الله، ثم ترفع من الركوع قائلة : لا إله إلا الله، وهكذا حتى
تتم صلاتها.

- وبعد السلام : تقرأ أذكار الصلاة تعقد أصابع يدها اليسرى :
لا إله إلا الله، لا إله إلا الله...

- ومرضت يومًا : فرأيتها ترفع يدها اليسرى وتدعو ولكن
بـ(لا إله إلا الله).

والله سبحانه عالم السر والعلن، يعلم ما تسأله...

- ولما علمت بوفاة العلامة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ١٩٠).

جبرين - رَحِمَهُ اللهُ - وهو من أبناء عمومته؛ رفعت يدها بالدعاء له، ولكن لا تسمع منها إلا (لا إله إلا الله).

تصَجَّب كل من رآها :

- إنَّ في حال هيا لعبرة لكل من رآها ، كيف أنَّ هذا اللسان الذي يلهج بذكر الله في الصحة والعافية يعود مخبئًا لله حال الضعف والعجز!

- زارتها زميلتي (مها الدَّبل) (*) وسلَّمت عليها وسألتهَا عن حالها، فكانت لا ترد عليها إلا بـ لا إله إلا الله، دهشت مها ، قلت : يا مها : هذا لا يأتي من فراغ، إنما بعد جدَّ واجتهاد، فاغرورقت عينا مها بالدموع!.

- وزارتها امرأة من المعارف لأول مرة، فلما رأتها لا تتحدث إلا بـ لا إله إلا الله، قالت : هنيئًا لها! إذا جاءها ملك الموت فليس على لسانها إلا (لا إله إلا الله)....

- كنتُ أسمع قصصًا في المجالس أن هناك من يجري على لسانه ذكر الله فقط، لكنني لم أكن أتخيل أني يومًا ما سأقابل وأجتمع وأجالس من لا ينطق إلا بـ (لا إله إلا الله) أفضل كلمة في الوجود كما قال ﷺ : «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»^(١).

(*) ذكرت قصتها، ص ٦٣.

(١) رواه الترمذي برقم (٣٣٨٣).

وقِيضَ اللهُ مِنْ يَعْتَمِرُ عَنْهَا :

• قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي محبة في قلوب الصالحين.

- كان من فضل الله على هيا بعد إصابتها بالمرض، أن قِيضَ لها مَنْ اعتمر عنها وهي (عاملة منزلية) عندي، بلا طلب من قبلي، لما رأْتُ من عجزها عن ذلك، والله سبحانه يُسَخِّرُ مَنْ يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

وسبحان من جعل حسن الخلق سبباً لدعاء الناس لصاحبه، وإهدائهم القُرب الصالحة في حياتهم وبعد مماتهم.

**إِنَّ الْحَيَاةَ مَزَارِعُ
فَاذْرَعُ بِهَا مَا شِئْتُ تَحْصُدُ
وَالنَّاسُ لَا يَبْقَى سِوَى
آثَارِهِمْ وَالْعَمِينُ تَفْقَدُ**

الْخَاتِمَةُ الْحَسَنَةُ :

- مرضت هيا ونُقلت إلى المستشفى ، وأقامت فيها أياماً قلائل.

اشتدَّ بها الألم وخارت قواها وضعف حالها وقُرب خروج الروح..

فما تظنون أنها ستقول عند الموت، وقد مكثت عشر سنوات
وكلمة التوحيد تجري على لسانها؟!!

في هذه اللحظات العصبية رفعت هيا إصبع يدها اليسرى
ونطقت بكلمة الشهادة (لا إله إلا الله) ثم كررتها وكررتها حتى لا
يكاد يُسمع منها إلا حروف تُتمِّم بها، ثم خرجت روحها عصر
يوم الجمعة الموافق : ٢٤ / ١٠ / ١٤٣٤ هـ.

وما الدُّنيا بـأَقْبِيَّةٍ لِحَيٍّ وَمَا حَيٌّ عَلَى الدُّنْيَا بِبَاقٍ

- توفيت بعد أن وفقها الله لصيام شهر رمضان وأتبعته بسبَّ
من شوال، عن عمر يناهز الثماني والثمانين سنة، أمضتها في طاعة
وصلاح... حفظت جوارحها في رخائها، فحفظها الله عند موتها،
وأحسن خاتمتها، وهذا مصداق ما أخبرنا به - ﷺ - : «**احْفَظْ
الله يَحْفَظْكَ**»^(١).

وفي مجلس العزاء :

- كثر الثناء عليها وسؤال الله المغفرة والرحمة لها، والناس
شهود الله في أرضه.

ذكرت بعض الحاضرات من قريباتها أنها كانت تدرسهنَّ

(١) سبق تخريجه.

القرآن الكريم في فترة العدة (الحداد) على زوجها الأول؛ بعضهن يأتين في وقت الضحى وأخريات في العصر.

فانظر - رعاك الله - إلى اغتنام الأوقات والأعمار في تعليم كتاب الله، قال - ﷺ - مرغباً في تعليم الناس القرآن الكريم :
«مَنْ عَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا تُلِيَتْ»^(١).

وانظر - رعاك الله - إلى النفس التواقة لمعالي الأمور ونفع الخلق.
- رحلت هيا ولم يرحل أثرها الحسن وعلمها النافع وذكرها الطيب، وصدق من قال :

**وَكُنْ امْرَأًا إِنْ أَتَوْا بَعْدَهُ
يَقُولُونَ مَرًّا وَهَذَا الْاَثَرُ**

- كان من بين المعزين رجلٌ وقورٌ في الخمسين من عمره؛ عرّف بنفسه وأنها زوجة عمه (الزوج الأول)، وأن والدته توفيت وعمره سنة واحدة، فقام والده وسلّمه لامرأة عمّه هيا لترعاه بعد وفاة والدته.

يقول ممتناً لها : لم يُسلمني والدي لعمّة ولا لخالة، إنما للمرأة التي سَبَر دينها وأخلاقها، سلمني لامرأة عمّي هيا فربّتي أحسن تربية، ولما كبرتُ عدتُ إلى بيت والدي.

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم (١٣٣٥).

- ولم نعلم قط بأنها ربّت صغيراً في بيتها إلا في وقت العزاء،
ولعلها أرادت أن يكون هذا العمل خبيثة لها عند ربها أو لأنها لا
تحبّ الحديث فيما لا يعيننا أمره - والعلم عند الله - .
- إنّ في سيرة هيا لعبرة وعظة، وذكرى لمن كان له قلب
فوعى .

وكانت في حياتك لي عِظَاتٌ
وأنت اليوم أوعظُ منك حيّاً
أسأل الله أن يجمعنا بها ووالدينا وذريّاتنا وأحبّابنا في جنّات
النّعيم .

٨ - نورة اللّٰهيد

«أخلاق الكبار»

من دعاء النبي ﷺ :
«اللَّهُمَّ اهْدِنِي لأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ، فَإِنَّهُ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ»^(١).

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، رقم الحديث (٩).

٨ - نورة اللّحيد^(١)

حسن الخلق من الإيمان، وصاحبه ينال مرتبة عالية كما قال - ﷺ - : « **إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيُذْرِكَ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ** »^(١)، وكان من دعاء النبي - ﷺ - : « **وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي** »^(٢).

• عرفه ابن المبارك : هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى^(٣).

وعرفه آخر : أن تأتي الناس بمثل ما تحب أن يأتوك.
في هذا الزمان قل أن تجد من يتخلق بالخلق الحسن في سرائه وضرائه، وسائر أحواله مع الأقارب والأبعد حتى الممات.
من نماذجه الشامخة: نورة اللّحيد (أم صالح القاسم)، يشهد لها الجميع بحسن الخلق، ودماثة الطباع، وصفاء السريرة، وخدمة الناس.

(*) قرأت سيرتها العطرة على ابنتها الكبرى (أم تركي) فزودتني ببعض الإضافات، شكر الله سعيها.

(١) رواه أبو داود برقم (٤٧٩٨).

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٥٥١)، والسخيمة : الحقد والغل، والسُخام : سواد القدر.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/٤٥٧).

حياتها الاجتماعية :

- تزوّجها عمّي وعاشت مع جدّي في المزرعة أكثر من ثلاثين سنة، فكانت نِعم الزوجة، ونِعم زوجة الابن لأم زوجها، فلم تسمع منها جدّي كلمة تسيئها، أو فعلاً يضيرها، لا تتناول وجبات الطعام إلا معها.... وهكذا المعدن الطيب لا يغيّره طول السنين!.

خدمتها للضيوف :

- كانت المزرعة عامرة بالضيوف طوال العام يأتون للسلام على جدّي، فما نرى إلا ابتسامتها لا تفارق محيّاه، تخدم الجميع من غير تأفّف ولا تذمّر؛ فالأعياد والاجتماعات العائلية والزيارات اليومية المتكررة عندها، ترحب بالزوّار وتُكرّمهم، مضيافة سمحة، تسعد بخدمتهم، وتفرح بمجيئهم.

- وأذكر أن هناك من الأحفاد من يقضي الإجازة الصيفية في المزرعة عند جدّي، وكانت تقوم بخدمتهم وغسيل ملابسهم!. وعلى الرغم مما يصيبها من التعب وكثرة المشاغل في النهار فقد كانت صاحبة قيام ليل، بل وتقوم للصلاة من تلقاء نفسها (بدون منبه).

انتقالها للعيش في الرياض :

- وفي السنوات الأخيرة انتقلت إلى العيش مع أبنائها في

الرياض، فحُفَّت عليها المسؤولية فتفرغت لصيام النوافل، وحفظ القرآن الكريم....

- وللجيرة حق ... لَمَّا أقامت في الرياض، كانت السبَّاقة في إقامة دورية اجتماع للجيران؛ يتعرَّف بعضهم على بعض ويأنس بعضهم ببعض، ولم ينسوا لها هذه المبادرة.

الذكرى الطيبة :

● قال سعيد بن العاص : إِنَّ المكارم لو كانت سهلة يسيرة لسابقكم إليها اللئام، ولكنها مُرَّة لا يصبر عليها إلا من عرف فضلها ورجا ثوابها^(١).

- لا يذكر أحد من أقارب أم صالح أو معارفها أنها أساءت إليه بقول أو فعل.

وإن سمعت إساءة من البعض قابلتها بالصبر والاحتساب، ولا تخبر بذلك أحداً، عاملةً بقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

- أحبُّها الجميع لسيرتها العطرة وكرم أخلاقها، بل أصبحت مضرب مثل عند البعض إذا أرادوا أن يصفوا فلانة من الناس ذات خُلُق حسن ووجه صَبُوح قالوا : مثل أم صالح.

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا برقم (٥٩).

وَإِذَا رُزِقَتْ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً
فَقَدْ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الْأَرْزَاقِ
فَالنَّاسُ هَذَا حِظُّهُ مَالٌ وَذَا
عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ

الفأل عبادة :

• الفأل عبادة يحبُّها نبينا ﷺ : «وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ»^(١).

الفأل حسن ظنٍّ بالله، دافع للعمل، وتقوية العزم، وباعث للأمل والفرح والاستبشار.

ففي الحياة هموم وأثقال، إذا مُزجت بالتفاؤل انفتحت أبواب الأمل وأشرق نور الحياة.

- كانت أمّ صالح تحمل دوماً روح التفاؤل، ليس في قاموس حياتها كلمة (صعب) بل تُؤمِّل الخير من الله دائماً بعباراتها الجميلة : ييسر الله، يبعين الله، بيوفق الله....

لسان حالها كما قال الشاعر :

إِذَا ضَيِّقَتْ أَمْرًا ضَاقَ جِدًّا
وَإِنْ هَوَّنَتْ مَا قَدْ عَزَّ هَانَا
فَلَا تَهْلِكْ بِشَيْءٍ فَاتَ حُزْنًا
فَكُنْ أَمْرٍ تَصْعَبُ ثُمَّ لَنَا

(١) رواه البخاري برقم (٥٧٧٦).

رَدُّ الْجَمِيلِ مِنْ شِيمِ الْكِرَامِ :

• من حسن أخلاق المسلم حفظ المعروف وردّ الجميل ومقابلة الإحسان بالإحسان، فقد قال ﷺ: « لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ »^(١).

- كانت أمّ صالح تحمل أخلاق الكبار، تحث زوجها على الإحسان لأهله والوقوف إلى جانبهم، وكانت تذكر إحسان إخوان زوجها إليها عندما أصيبت بوعكة صحيّة، وتذكر أبناءها بهذا الموقف الجميل منهم وتكثر من الدعاء لهم، ولم تنس فضلهم عليها.

ولسان حالها يقول :

إِنِّي أَمْرُؤٌ فِي الْوَفَاءِ سَجِيَّةٌ
وَفِعَالٍ كُلُّ مُهَذَّبٍ مِفْضَالٍ

• أمّا نكران الجميل فإنّه طبع اللئام الذين لا يراعون للوفاء ذمة، فإذا ما أحسنت إليهم مرارًا وأخطأت في حقهم مرة ؛ نسوا فضلك وتنكروا لك وربما نصبوا لك العدا، وهذا الضرب من الناس كثير في هذا الزمان، والله المستعان.!

(١) رواه الترمذي برقم (١٩٥٤).

استعدادها للميد :

- وفي شهر شعبان سلّمت الخياط قماشاً ليحيك لها ثوباً
تلبسه في عيد الفطر مع أحبّتها...
ولكن!

لم تكن تعلم ما تخبئه الأيام، وأنّ هذا الثوب لن تلبسه، وأن
عيد الفطر لن تحضره!.

**يا ذَا الْمُؤْمَلِ آمالاً وإنْ بَعُدَتْ
مِنْهُ وَيَزْعُمُ أَنْ يَحْظَى بِأَقْصَاهَا**

الوداع الأخير :

- في اليوم الثالث من أيام رمضان اتصلت أمّ صالح على
جميع أبنائها وبناتها للسلام عليهم ولدعوتهن لطعام الإفطار،
ولما اعتذرت منها ابنتها الكبرى لانشغال الأبناء بالدراسة ردّت
بقولها : مشاغل الدنيا لا تنتهي!

وحدث في المسجد :

- وفي الليلة الرابعة من شهر رمضان من عام ١٤٢٠هـ، ذهبت
لتصلي صلاة التراويح في مسجد الحيّ وهي في كامل صحتها
وعافيتها، سلّمت على نساء الجيران، ثم شرعت لأداء صلاة
تحية المسجد، وفي الركوع أو الرفع منه اهتزت وسقطت على
الأرض، أصيبت بالسكتة القلبية وفارقت الحياة! - رحمها الله

رحمة واسعة - .

يا لها من حسن خاتمة!

تُوَفِّت وهي تصلي في بيت من بيوت الله!

قال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ»، قالوا: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «يُوفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ»^(١).

ثناء الناس عليها :

- لعلها نالت حسن الخاتمة - والعلم عند الله - بحسن خلقها وصبرها على خدمة الأقارب والأبعد، وهذا ما أفصح به عمي زوجها - عندما عزّيناه في زوجته التي يندر أن تجد مثلها، فقال بالحرف الواحد: «أرأيتم عاقبة الصبر» يشير بهذا إلى حسن خاتمتها. - وما زال ذكرها الطيب وسيرتها العطرة تتردد على ألسنة أقاربها وخاصة في الأعياد والمناسبات التي كانت تستقبل فيها الضيوف برحابة صدر وبشاشة وجه وسماحة نفس وصفاء سريرة، قال علي بن الحسين: قد استترك بالود من سبقك بالبشر^(٢).

(١) رواه الترمذي برقم (٢١٤٢)، وأحمد برقم (١٢٢١)، قال محققوه: إسناده

صحيح على شرط الشيخين.

(٢) شعب الإيمان برقم (٨٠٥٨).

ومن فضل الله عليها أن الدعوات تلو الدعوات تصل إليها،
والنبي ﷺ يقول: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١).

وَأَمَّا الْمَرْءُ حَدِيثُ بَعْدِهِ
فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى

• اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق، فقد كان من دعاء النبي -

ﷺ - : «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ، فَإِنَّهُ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا
إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(٢).

اللهم ارحم أمّ صالح واجمعنا بها ووالدينا وذرياتنا في جنّات
النعيم.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

٩ - سَمَرٌ ...

«الهمة العالية»

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ فِجْرَةً لَّان تَبُورَ﴾ [سورة فاطر : آية : ٢٩]

٩ - سَمَرٌ...(*)

هَمَّةٌ وطموح :

- (سَمَر) فتاة في العشرينات من عمرها، همّة عالية، ونشاط
دؤوب في دروب الخير.

دخلت دورة مكثّفة لمدة شهر في الإجازة الصيفية لحفظ
(عشرة) أجزاء من القرآن..

تبدأ الدراسة : الساعة السابعة صباحًا وتنتهي الساعة السابعة مساءً.
هذه الفتاة أَحَبَّتُها في الله، أَحَبَّتْ أن أسمع الكثير عن حياتها..
ولقائل أن يقول : وما الغرابة في هذا؟

أليس هناك -ولله الحمد- آلاف الفتيات يحفظن كتاب الله في
دورات مكثّفة؟

ما الذي أثار عجبك في سمر؟!

ما الذي تميّزت به؟

- هذه الفتاة كابدت الصعاب بهمّة وطموح.

تحمل في صدرها همّة عالية، وتحمل في أحشائها جنينًا في
الشهر التاسع.

(*) نشرتها في مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ (١٠/١٤٣٦هـ).

قدمت في الإجازة الصيفية من القرية التي تسكن فيها مع زوجها لزيارة أهلها في إحدى المدن، ولما علمت بهذه الدورة رأت -رغم ظروفها- أنها فرصة عظيمة لا تُفوت! فالتحقت بها. ولسان حالها يقول :

**ولي همم بيني وبين بلوغها
بحور من الآمال ليس لها جسر**

• قال ابن القيم : وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة.. والقصد أن ملاحظة حسن العاقبة تُعين على الصبر^(١).

فضل القرآن الكريم :

• قال ﷺ : «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٢).

• وقال ابن القيم : إن محبة الله تنور الوجه، وتشرح الصدر، وتُحيي القلب، وكذلك محبة كلام الله فإنه من علامة محبة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك من محبة الله؛ فانظر إلى محبة القرآن في قلبك^(٣).

(١) مدارك السالكين (٢/ ١٢٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٠٢٧).

(٣) الجواب الكافي، ص ٢٣٥.

وزرت مقرّ الدورة :

- قدمت لي المديرية نبذة عن الدورة وعن عدد الطالبات وأن من ضمن الطالبات؛ سمر تلك الطالبة الحامل في شهرها الأخير. حدّثني عن رغبتها في حفظ القرآن، وعن طموحها، وعن تخوّف الإدارة أن تأتيها الولادة أثناء الدراسة!!

رافقتني المديرية إلى قاعة الفصل لعقد لقاء طيب مع الطالبات، وكلّي شوق إلى رؤيتها.
دخلت المكان..

تحدّثت مع سمر وزميلاتها عن فضل القرآن الكريم ووجوب العمل به...
بعد أيام..

هاتفني المديرية وبشّرتني بأن سمر قد ولدت.
أتاها طلق الولادة، وهي في مقرّ الدورة، فاتصلت على زوجها الذي ذهب بها إلى مستشفى الولادة مباشرة..
ومن ثمّ أنجبت مولوداً والله الحمد.

لا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر :

- لم تنه سمر دراستها لانشغالها بالمولود الجديد..
تغيّبت أربعة أيام فقط ثم عادت، وقد حفظت ما فاتها!!
لم تأت وحيدة هذه المرة بل جاءت تحمّل مولودها بين يديها.

دخلت مقر الدورة ، وأودعت مولودها عند (المستخدمة)
بعد أن أشبعته رضاعة فنام. .

ثم دخلت الفصل تحفظ (وتُسمع) للمعلمة، وبين حين وآخر
تذهب تتفقد صغيرها لتطمئن عليه.

لفتَ نظر من حولها أن طفلها الرضيع لا يبكي كعادة أكثر
المواليد. .

لا أدري!

هل صدقها مع الله ورغبتها في حفظ القرآن له أثر كبير في
نزول السكينة على هذا المولود؟! فقد قال ﷺ : « **إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ**
يَصْدُقْكَ »^(١)... الله أعلم.

وبعد أيام...

- طلبت مني المديرة لقاء آخر مع الطالبات، فوافقتُ ولم
أتردداً! لا أدري؛ هل لأن منزلي لا يبعد كثيراً عن مقر الدورة أم
النفس تواقّة لرؤية (سمر) بعد الولادة والاجتماع مع تلك الوجوه
المسفرة (طالبات الدورة)؟!!

ذهبت من الغد، دخلتُ القاعة.

هاهي سمر، تلبس القفاز والمصحف بين يديها، وإنهاك
الولادة يظهر في وجهها المُجهّد.

(١) سبق تخريجه.

وجاء الحفل الختامي..

أعلنت أسماء المتسابقات..

ها هي سمر تستلم شهادة حفظ عشرة أجزاء من القرآن،
وتهايليل الفرحة والبشر ترسم على وجهها، ولذة النجاح والسرور
تكملها، وروعة الهدف تُسابق خطواتها، وما أسمائه من هدف!
ذهب التعب وجاء الحصاد..

قال عبدالله بن وهب: لكل ملذوذ في الدنيا لذّة واحدة ثم
تزول إلاّ العبادة لها ثلاث لذّات: إذا كنت فيها، وإذا تذكّرت
أنك أدّيتها، وإذا أُعطيَت ثوابها.

دروس من سمر:

- لقد تعلّمت منك - يا سمر - درساً عملياً في الصبر
والطموح وعلو الهمة، وأنّ مَنْ صدّق مع الله صدّق الله معه.
حقاً! لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا.
- لقد أعطيت - يا سمر - درساً لِمَنْ أثر الراحة والدعة أن
ينفض غبار الكسل ويلحق بركب الحفاظ، ويصعد على سلّم
الصعاب.. فثمّ الفلاح والسعادة.
حفظك المولى، وجعل ما حفظته حجة لك لا عليك..

١٠ - أمل عبدالعزيز ...

دروس وعبر

كان من دعاء النبي ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ،
وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ) (١).

(١) رواه مسلم برقم (٢٣٣٩).

١٠ - أمل عبدالعزيز(*)

قبل سبع سنوات، كنتُ في لقاء مع جمع من النساء، فلما هممتُ بالانصراف أوقفتني طفلة صغيرة في العاشرة من عمرها، ممسكة بيد والدتها، تسألني عن سنة الضحى!

عجبتُ من حرصها على نوافل الطاعات رغم صغر سنّها.

سألتها: ما اسمكِ؟، قالت: اسمي أمل.

حُفِرَ هذا الاسم في ذاكرتي، ولم يَدُرْ في خُلدي أنّي سألتقي بها بعد سنوات، ولكن على حال آخر!

وكان اللقاء ...

ومرّت الأيام والسنوات...

- هاتفنتني يوماً زميلة لي تخبرني عن شابة صالحة خيرة، تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، ترقد قرابة سنتين في المستشفى، أصيبت بورم في المنخ، أعاقها عن الحركة والنطق، وأصرّت أن نذهب سوياً لزيارتها لما في ذلك من فضل، فقد قال ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ زَارَ أَخَاهُ فِي اللَّهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ: أَنْ طِيبَتْ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّاتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا»^(١).

(*) نشرت هذه القصة في صحيفة (تواصل) الإلكترونية بتاريخ: ٢٥/٤/١٤٣٦ هـ.

(١) رواه الترمذي برقم (٢٠٠٨).

ذهبنا إلى المستشفى سوياً، دخلنا قسم العناية المركزة ثم
غرفة المريضة، فإذا المريضة هي أمل!
نعم أمل!

لم أعرفها إلا عندما رأيت والدتها.
الأجهزة الطبيّة تحيط بها، وجهاز التنفس في حنجرتها، لا
تتكلّم، لا تتحرّك، فقط ترمقنا بعينيها.

ما أضعفك أيها الإنسان!

- عاد بي شريط الذكريات يوم أن سألتني قبل سبع سنوات
عن سنة الضحى، مليئة بالحيوية والنشاط.
والآن!

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ»^(١).
هذا حال الدنيا!

فلا حزنٌ يَدُومُ ولا سرورٌ
ولا عُسرٌ عليك ولا رخاءٌ
وصدق ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ،
وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ،
وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الحاكم برقم (٧٩١٦).

- سألتها: أمل، هل عرفتيني؟

فأشارت بعينها إلى أسفل، يعني (نعم).

رقّ قلبي لحالها، ذرفت عيني رحمة بها ثم تذكّرت أنّ الله

أرحم بها مني.

حدثها عن حكمة الابتلاء؛ وأنّ المصائب كفارة للذنوب

ورفعة للدرجات وزيادة في الحسنات وأوردت لها بعض

الأحاديث، منها؛ قوله ﷺ: **«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ**

الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا»^(١)، وذكرت لها شرح الشيخ محمد بن عثيمين

على هذا الحديث وهو: أنّ الإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية

وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في

الدنيا، لأنّ العقوبات تُكفر السيئات، فإذا تعجّلت العقوبة وكفر

الله بها عن العبد يلاقي الله وليس عليه ذنب قد طهرته المصائب

والبلايا، حتى أنّه ليشدد على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين

عليه حتى يخرج من الدنيا نقيّاً من الذنوب، وهذه نعمة لأنّ

عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة^(٢).

- وذكرت لها بلقائي بها قبل سنوات عند سؤالها عن صلاة

الضحى، وبشرتها بحديث الرسول ﷺ: **«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي**

(١) رواه الترمذي وحسنه برقم (٢٣٩٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/٢٥٨).

ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ. . وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ»^(١) وقلت:
أرجو من الله أن تكوني من هذا الصنف.

تحدثت وتحدثت، وكلها أذن صاغية.

- أما والدتها- أسأل الله أن يأجرها- فما هوّن عليها هذا
الابتلاء إلا بشارات نبينا - ﷺ - لأهل البلاء الصابرين كقوله:
«مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةُ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى
اللَّهُ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(٢).

دعوتُ لأمل وودعتها وانصرفت.

وجاء الفرج ..

- بعد مرور عدة أشهر، هاتفنتي والدتها تبشّرني بأن أمل
أنطقها الله الذي أنطق كل شيء، وأنها - والله الحمد - أصبحت
قادرة على تحريك يديها وقدميها.

ذهبتُ لزيارتها في المستشفى، دخلت الغرفة، وألقيت السلام.

فردّت أمل: وعليكم السلام ورحمة الله.

- كيف حالك؟ فأجابت: الحمد لله بخير.

سبحان من يحيي العظام وهي رميم!

(١) رواه البخاري برقم (١٤٢٣).

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٣٩٩).

كنت استمع لكل كلمة تقولها أمل، وقد أبدت فرحتها
وسعادتها بأن تفضّل الله عليها بنعمة الكلام؛ فيه تذكّر الله،
وتفصح عما في نفسها، ثم صرّحت برغبتها في تغطية وجهها عن
الطبيب، فقاطعتها والدتها مبينةً لها صعوبة الغطاء لوجود جهاز
التنفس في حنجرتها.

سبحان الله!

قلوب الأتقياء معلقة بالطاعات.

سبحان القريب المجيب!

•• كآني بك - أيها القارئ - تتساءل : كيف نطقت أمل
وتحرّكت؟.

لا أخفيك سرّاً أني سألت والدتها هذا السؤال.

فأجابت: في العشر الأخيرة من رمضان، غلب على ظني
في إحدى لياليه أنّ هذه الليلة هي ليلة القدر، فاتصلتُ بابنتي
المرافقة معها تلك الليلة في المستشفى وطلبت منها أن تتصدّق
على عاملة النظافة المحتاجة.

أما أنا - والحديث لوالدتها - فاجتهدت بالدعاء لابنتي أمل أن
يفرّج ربي كربها، وكانت المفاجأة!..

بعد أن تصدّقت ابنتي عادت إلى غرفة أمل فإذا هي تنطق
بكلمات بل وتحرك يديها وقدميها!

ذهلت ابنتي المرافقة! واحتارت هل تبشرني أم تستدعي
الأطباء الذين أجمعهم الموقف!

ما أعظم أثر الدعاء! تفريج للكروب، وزوال للهموم.

وما أبلغ أثر الصدقة! قربة إلى الله ودفع للبلاء.

ذكر ابن القيم: (أن من أسباب إجابة الدعاء: أن يقدم الداعي
بين يديه صدقة)^(١)، فلعل الصدقة والانكسار والتذلل بين يدي

الله في ليلة مباركة كان سبباً في تفريج الكرب، ﴿إِنْ رَحِمَ اللَّهُ

قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وعلم ذلك كله إلى الله

الذي جعل لكل شيء قدراً.

وخرجت أمل من المستشفى :

- خرجت أمل من المستشفى على كرسي متحرك، صابرة

(١) وتام كلامه **رَحِمَهُ اللَّهُ** عن الدعاء المستجاب : (وإذا اجتمع مع الدعاء حضور

القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة،

وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرب، ودلاً له، وتضرعاً ورقة،

واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله

والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد **ﷺ**، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة

والاستغفار، ثم دخل على الله وألح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة،

وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا

الدعاء لا يكاد يرد أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي **ﷺ** أنها

مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم (الجواب الكافي ص ١٢)

على ما أصابها، ولسانها لا يفتر عن ذكر الله وقراءة القرآن والدعاء،
ولا تسمع منها إلا عبارات الرضا والتسليم لله، ولسان حالها:-

رَضِيتُ بِمَا قَسَمَ اللهُ لِي
وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى خَالِقِي
فَقَدْ أَحْسَنَ اللهُ فِيَّ مَا مَضَى
وَيُحْسِنُ إِنْ شَاءَ فِيمَا بَقِيَ

- خرجت أمل من المستشفى وكأنها تقول لمن علم بحالها:
﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وأنه يقول
للشيء كن فيكون، وأن الذي أنزل البلاء قادر على رفعه!
- خرجت أمل من المستشفى وكأنها تقول لمن حولها: إنَّ
المعاق الحقيقي هو من أعاقه الهوى عن اتباع الهدى.
أسأل الله لأمل الشفاء التام، وما ذاك على الله بعزير.

١١ - أمّ عبد الله اليونانية

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥].

«ولكنّ الله يعلم»

١١ - أمّ عبدالله «اليونانية» (*)

• التقيتُ قبل سنوات باليونانية «أمّ عبدالله» التي تنحدر من أسرة نصرانية متعصّبة لديانتها الباطلة، زوجة لطبيب عربي مسلم يعمل في أحد مستشفيات المملكة، مَنْ الله عليها بالإسلام، طرحْتُ عليها عدة أسئلة بحضور صديقتها (خديجة) البريطانية. وإليك - أخي القارئ - هذا اللقاء الشيّق معها :-

س- كيف أسلمت؟

- كُنْتُ نصرانية متعصّبة لدين النصرانية، تزوّجتُ من رجل مسلم، دعاني إلى دين الإسلام فأبيت، وكان يدعو لي كثيرًا في ظهر الغيب أن يشرح الله صدري للإسلام، ولما قدمت معه للعمل في المملكة، رأيت شعائر الإسلام تقام هنا، بيّن لي زوجي أنّي أشدّ إثمًا عند الله من أهلي لأنّي أعيش في بلد الحرمين؛ أسمع الأذان وأرى المصلين، فلا حجّة لي عند الله في بقائي على النصرانية مع وضوح الطريق، وقد أصابني حقيقةٌ خوفٌ وقلقٌ من مقولته هذه..

(١) أثرت أمّ عبدالله أن لا أذكر اسمها، فليتبّ طلبها، نشرت في صحيفة تواصل الإلكترونية في ٢٩/٢/١٤٣٦ هـ.

وعلى الرغم من تمسّكي آنذاك بديني الباطل إلا أنّي كنتُ حريصة على إيقاظ زوجي عند نومه للصلاة، وقد أثر كوني ولدتُ في السودان وعشتُ فيها سنوات الطفولة أنّي لا ألبس إلاّ الملابس المحتشمة، وأسرتي عمومًا تأثرت بلباس المسلمات المحتشم هناك.

•• لكن مرّ بي ثلاثة مواقف أثّرت فيّ فكانت سببًا في إسلامي بعد فضل الله سبحانه :

• الموقف الأول: أراد زوجي السفر إلى مكة في العشر الأخيرة من رمضان فطلب مني أن أتهيأ للسفر عن طريق البر وكان ينوي أن يوصلنا إلى جدة ثم يذهب إلى مكة وحده . . وفي الطريق . . وصلنا إلى مفترق : طريق مكة وطريق آخر يصل إلى جدة، وقد كتب على لوحة إرشادية (طريق غير المسلمين). أراد زوجي أن يسلك هذا الطريق - لأنه يحرم عليّ الدخول إلى مكة وأنا نصرانية - ، فقلت له: لندخل سويًا لمكة، لا أحد يعلم بذلك، لا رجل الأمن ولا غيره من الناس.

فأجاب : «ولكنّ الله يعلم!»

هزّنتي هذه العبارة، وكان لها وقع كبير على قلبي، «ولكن الله يعلم!» «ولكن الله يعلم»! .! أكبرتُ في زوجي استحضاره لرقابة الله ، وإن لم يعلم البشر بصنيعه.

• الموقف الثاني: عشت حياة عصبية من شهر رمضان إلى شهر ذي الحجة أخاطب نفسي: أترك دين آبائي وأجدادي وأدخل في دين الإسلام؟... أيهما الدين الصحيح الدين الإسلامي أم النصراني؟!

ألححتُ في الدعاء: «يارب، يارب! إن كان دين الإسلام هو الدين الحق فاجعلني من أهله» وكنت أرى رؤى عجيبة في المنام؛ تارة أني أصلي في الحرم، وأخرى أني أسجد لربي...

• الموقف الثالث: لما سافر زوجي للحجّ، فتحت التلفاز في يوم عرفة ورأيت منظرًا مهيبًا!

شاهدت الحجاج قد اجتمعوا في مكان واحد من كل مكان وقد ضجّت أصواتهم يسألون ربهم الحاجات بصنوف اللغات، وشاهدت حاجًا كبيراً في السن يدعو ربه يتضرع ويبكي، فإذا بي أبكي معه!.

لا أدري ما أصابني!.

اللحظة الحاسمة:

- قرّرت الدخول في الإسلام ، وكنت انتظر رجوع زوجي من الحجّ لأبلغه قراري الذي طالما تمناه طوال السنوات التي عشتها معه.

عاد زوجي من الحجّ، وكان متعباً من السفر فأخلد إلى النوم والراحة.. لكنني لم استطع الانتظار..

قمت بإيقاظه وصارحته بأني أريد أن أدخل في دين الإسلام، أتظنون أنّ هذه الكلمات خرجت بسهولة مِن في؟!!

لا والله! تلعثمت، وانعقد لساني، وبصعوبة نطقت بها بثلاث لغات: العربية والإنجليزية واليونانية!!

تعجّب زوجي من خلط كلامي بعدة لغات وتلعثمي وارتابكي فقال: «ذهبتُ وأنتِ عاقلة ورجعتُ وأنتِ مجنونة»!

تمالكت نفسي وقلت: «أريدُ أن أدخل في دين الإسلام».

نفض فراشه، تهلّل واستبشر ثم لقّني الشهادة.

يالها من لحظات عصيبة!

رعشة في جسدي، خفقان في قلبي، برودة في يدي، العرق يتصبب، نطقت بالشهادتين ثم اغتسلت.

صليت أول صلاة في حياتي.

الله أكبر!

﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

ولله الفضل والمِنَّة واطبّت على أداء الصلوات الخمس وصلاة الرواتب والضحى وقيام الليل.

تركت سماع الأغاني ومشاهدة المسلسلات غير الهادفة،
وصنت لساني عن الغيبة والنميمة.

وَمِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنِّي لَمَّا عَلِمْتُ بِتَحْرِيمِ مَصَافَحَةِ الْأَجْنَبِيِّ
لَمْ أُعْذُ أَصَافِحَ الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ بِمَا فِيهِمْ زَوْجُ أُخْتِي، بَلْ لَمْ أُعْذُ
أَتَكَلَّمُ مَعَ الرِّجَالِ إِلَّا لِحَاجَةٍ.

س - ما هو شعورك بعد الإسلام؟

شعوري بعد الإسلام لا يوصف، أحسست بفرح وسعادة لا
مثيل لها، كأني وُلِدْتُ من جديد!

لقد أحببتُ هذا الدين العظيم، وكم أنا نادمة على حياتي
الماضية التي عشتها في ظلمات الكفر، ولم أقرأ القرآن الكريم
ذلك الكتاب الذي ينير طريقنا، وَيُبَصِّرُنَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يعلمنا
كيف نعيش الحياة الطيبة؟ كيف نتعامل مع الله؟ كيف نتعامل مع
الناس؟ لقد تغيّرت معاملتي لزوجي، أصبحتُ أقابل ما يمرّ بي
من مواقف معه بالصبر والتسامح مما يمليه عليّ ديني الإسلام
العظيم.

س - أين يدرس أبنائك؟

كنت قد ألحقت أبنائي بالمدارس الأجنبية، وبعد أن منّ الله
عليّ بالإسلام نقلتهم إلى المدارس الحكومية ليتعلّموا اللغة

العربية، وقبل كل شيء ليتعلّموا العلوم الدينية، علماً أنهم لمّا دخلوا المدارس الحكومية أخرجوهم ستين عن صفوفهم، ولكن ما عند الله خيرٌ وأبقى (*).

والحمد لله أصبحت ابنتي الكبرى تجيد اللغة العربية وأحرص على أن ترافقني للندوات الدينية لترجم ما يصعب عليّ فهمه، وأحياناً تقرأ عليّ بعض الكتب الدينية التي أتمنى - من أعماق قلبي - أن أقرأها بنفسي، وإني لأعجبُ ممن يعرف اللغة العربية قد علا الغبار خزينة كتبه لا يقرأ فيها فحرم نفسه من التفقه في الدين!

س- وماذا عن حفظك للقرآن الكريم؟

التحقتُ بدار تحفيظ للقرآن الكريم - والله الحمد - كنتُ الطالبة الوحيدة التي لا تستطيع قراءة القرآن ولا تجويده، وكان قلبي يحترق شوقاً وحباً للقرآن، ولكن صعوبة اللغة حالت بيني وبينه، ألححتُ على الله بالدعاء، تضرّعت، سكبت دموع الإقبال على الله والطمع في رحمته في صلاة التهجد أن يُيسّر لي حفظ كتابه، والحمد لله استجاب الله دعائي؛ حفظت جزء (عمّ) في

(*) انظر تأثير الأم على أبنائها، صدق الشاعر في قوله :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

خلال ثلاث سنوات، كان في ذهني أسئلة كثيرة وجدت إجابتها في تفسير جزء (عمّ).

والآن أحفظ (خمسة أجزاء) أخرى من القرآن الكريم بفضل الله تعالى. ^(١)

س - هل أديت الركن الخامس «الحج»؟

كنت أتمنى أن أقف مع المسلمين في عرفة مليية (ليبك اللهم ليبك)، والحمد لله حقق الله سبحانه أمنيته، وقفتُ مع الحجيج في ذلك اليوم العظيم الذي يباهي به الله ملائكته، دعوت ودعوت.. ومما دعوت به أن يرزقني الله سبحانه ولدًا أسميه (محمدًا) على اسم نبينا محمد ﷺ وأن ينفع الله به الإسلام والمسلمين. واستجاب الله دعائي، ورزقتُ فيما بعد بولدي (محمد) والله الحمد.

•• وقالت عن ماء زمزم :

علمت بفضيلة ماء زمزم الذي قال فيه نبينا محمد - ﷺ - :
«ماء زمزم لما شرب له» ^(٢) علّقت قلبي بالله فأصبحت أستشفي به أنا وأولادي.

(١) ولا عجب فمصعب بن عمير ؓ أرسله رسول الله ﷺ سفيرًا للإسلام، ولا يحفظ إلا من سورة (الناس) إلى سورة (الأعلى)، فقليل القرآن كثير.

(٢) شعب الإيمان برقم (٤١٢٧).

س- حدثينا عن حجابك؟

الحجاب جمال ووقار، وقبل ذلك أمرٌ من رب العالمين، أكرم الله به المرأة لتعيش مصونة عن أعين الرجال. لبستُ الحجاب مُعتزةً بهذا الأمر الإلهي، وخمّرتُ وجهي سواء داخل المملكة أو خارجها.

•• سافرتُ إلى خارج المملكة وألمني في الطائفة منظر بعض الفتيات وهنَّ يخلعن «العباءة» ويضعنها في الحقيبة، بكيّت لحالهنَّ وليس لي إلا ما أوجبه الله عليّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله المستعان!

•• في سفري إلى بلدي اليونان: لم أخلع «عباءتي وغطاء وجهي» كنت أسمع الضحكات والسخرية من بعض من يراني، ولكن عزائي هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠].

• من المواقف التي مرت بي: أتي سافرت إلى أمريكا برفقة زوجي في مهمّة تتعلق بعمله... وهناك أراد أن يزور بعضاً من أصدقائه الذين اجتمعوا في بيت أحدهم، ولم أنزل معه انتظرته في السيارة، فالبيت مليء بالرجال، لاحظت أن بالقرب من السيارة امرأة أمريكية تلبس ملابس غير ساترة، نظرت إليّ طويلاً ثم دخلت منزلها... وفي الصباح اتصل صديق زوجي (صاحب

البيت) يخبره بأن جارتها الأمريكية قد طرقت عليه الباب بعد مغادرتنا تسأله عن حجابي، هالها دهشة وإعجابًا، فأخبرها أنني مسلمة متحجبة لأن الإسلام يأمرها بذلك، وأهدى لها كتابًا وأشرطة عن الإسلام.

وفي اليونان كذلك صرّحت لي امرأة يونانية : إنني أخجل أن أتحدث معك! لأنني أرتدي ملابس غير ساترة وأنت بهذا الحجاب... إنها ترى صورة الإجلال في هندام الحياء والعفاف والستر.

هكذا المرأة المسلمة ينبغي أن تكون سفيرة لدينها بحجابها، تأخذه بقوة وترتديه بعزّة.

س - وماذا عن دعوتك لغير المسلمين؟

ولله الحمد أبذل جهدي في دعوة غيري ممن يعيشون في ظلمات الكفر عن طريق إهدائهم الكتب والأشرطة الإسلامية سواء في المستشفيات أو المشاغل النسائية، وأبشرك أسلم على يديّ هنا - بفضل الله - ست نسوة داخل المملكة.

أما في خارج المملكة، فقد كان حجابي مفتاحًا لدعوة الكافرات اللاتي يستوقفنني؛ بعضهن يتعجبن من حجابي الكامل من رأسي إلى أخمص قدمي، فأجيبهن بأنني مسلمة، وأعطيهن نبذة عن الإسلام.

أخي القارئ:-

ومما جاش في صدري بعد هذا اللقاء :

- أن خشية ومراقبة زوجها لربه قادها إلى تعظيم واعتناق هذا الدين العظيم.

- من صدق مع الله صدقه وأعانه على سلوك الطريق المستقيم.

- الثبات على الدين وذلك في ارتدائها للحجاب داخل المملكة وخارجها، مع أنها نشأت على الديانة النصرانية المحرفة، وترعرعت في بلد الكفر والعهر والسفور إلا أنها لما أدركت الإسلام ووعت حقيقته سارعت إلى تلبية أمر ربها في طوعية تامة وإخبات، فلتخش من تبرجت من نساء المسلمين من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

اللهم ثبتنا وإياها جميعاً على الحق إلى يوم لقائك.

١٢ - أمّ صالح التساييع

العبدة الزاهدة

قال ﷺ: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) ^(١).

(١) رواه الترمذي برقم (٣٣٧٥).

١٢ - أمّ صالح التسايغ

(أمّ صالح) امرأة وقورة، ذات سمت وهدي، في السبعين من عمرها.

عابدة، عُرفت بكثرة الأذكار وطول الصلاة.
قلّ أن تجد مثلها في زماننا هذا؛ لسانها رطب بذكر الله،
أصابها التي تبدو عليها تجاعيد الزمن تعقدها تسبيحاً وتهليلاً،
ليلاً ونهاراً؛ في خلواتها، وفي مجالسها مع النساء، ولكأنها ستفارق
الحياة بعد سويغات معدودة، فتودّ أن تملأ صحيفة عملها بالذكر،
ولا تفرط في ثانية واحدة من وقتها الثمين.

بداية التعارف :

- رأيت أمّ صالح لأول مرة في بيت ابنها.
كنتُ في المجلس مع زوجة ابنها نتجاذب أطراف الحديث،
أمّا هي فلا تشاركنا إلا قليلاً لانشغالها بالذكر.
قامت زوجة ابنها لإعداد طعام العشاء، فتركتني وحيدة
معهما؛ حدثتها عن أمر ما، فأنصت لي قليلاً ثم انشغلت بالذكر،
فاستحييتُ أصمت أم أكمل حديثي؟!
تناولت معنا طعام العشاء لقيمات معدودة ثم ابتعدت قليلاً

عن سفرة الطعام وانشغلت تعقد أصابعها بالتسبيح والتهليل!
 - وأحسبها والله حسيها- ممن قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِكْرُ مِنْ
 اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَالَّذِكْرُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] .

فضيلة كثرة الذكر :

- قال بعض السلف : علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لن تحب شيئاً إلا أكثر ذكره^(١).
- وقال ابن القيم: على حسب نور الإيمان في قلب العبد تخرج أقواله وأعماله ولها نور وبرهان^(٢).
- وقال يحيى بن معاذ : القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها، ومغارفها ألسنتها ، فانتظر الرجل حتى يتكلم؛ فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه من بين حلو وحامض وعذب وأجاج، يخبرك عن طعم قلبه : اغترافُ لسانه^(٣).
- وقال الحسن : أحبّ عباد الله إلى الله أكثرهم ذكراً وأتقاهم قلباً^(٤).

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١٦).

(٢) الوابل الصيب، ص ١٣٠.

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١٦).

تعجب الآخرين من حالها :

زارتني زوجة ابنها وسألتها عن حال - أم زوجها - أهذا دأبها بالليل والنهار؟!

قالت : نعم، وأوردت لي هذا الموقف من امرأة رأتها لأول مرة في مناسبة، وعجبت كما عجت، فطرحت عليها سؤالاً :
- هل هذا دأبك؟

- فأجابت بعبارة عامية : (ما في زود) ، وهذا حال الصالحين يرون في أنفسهم التقصير في حق الله والتواضع في جنبه.
- فقالت لها : منذ أن دخلنا المجلس سألت ثلاثة أسئلة :
(كيف حالكم؟ عساكم بخير؟ عساكم مبسوطين؟) وبقيّة الوقت انشغلت بالذكر، أسأل الله لك الجنة، أخبريني منذ متى وأنت على هذا الحال؟!

- فأجابت : أنا من عرفت نفسي وهذا حالي!

الله أكبر!

إنه محض اصطفاء، فمنذ عقلت ووعت ولسانها رطب بذكر الله..

حقاً! الموفق من وفقه الله، والمعان من أعانه الله.. والله المستعان.

فما أُسْتُدْفِعَتْ شرور الدنيا والآخرة، ولا أُسْتَجْلِبَتْ مصالحهما بمثل الصلاة، وسرُّ ذلك أن الصلاة صلة بين العبد وربّه، وعلى قدر صلة العبد بربّه عزّ وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربّه والعافية والصحة والغنيمة والغنى والراحة والنعيم والأفراح والمسرات كلّها محضرة لديه ومسارعة إليه^(١).

وفي صلاتها عِظَات :

- كانت أمّ صالح مشهورة بطول الصلاة وكثرة النوافل من راتبة وتطوع، فقد وجدت بها قرة عين، وصدق مناجاة، ولذة تبتل، أدركت أنها السعادة، وأنّ الأُنس لا يكون إلا حينما تنحني الجباه خشوعاً لله، تزداد بخضوعها إيماناً ورفعة، وترتوي به راحة وسكينة.

كانت لا تنتهي من صلاة الظهر إلا الساعة الواحدة والنصف. أما صلاة العشاء : فهي تصليها بوضوء صلاة المغرب ! إذ أنها تصلي صلاة المغرب ثم تصلي ما شاء الله لها أن تصلي وتذكر الله، وما هو إلا أن يؤذّن لصلاة العشاء فتؤدي صلاة العشاء^(*).

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٣١).

(*) ولا يظن ظان أن طول الصلاة مختص بكبيرات السن، فلقد طلبت مني إحدى

قيام الليل :

• قال ﷺ : « مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ ،
وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ
الْمُقَنْطَرِينَ »^(١) ، قال الحافظ : من سورة (تبارك الذي بيده الملك)
إلى آخر القرآن : ألف آية ، والله أعلم .

- كانت أم صالح حريصة على قيام الليل تُناجي ربها! ترجو
رحمته وتخاف عذابه، لا تسأل كم تصلي من الركعات، أيقنت
أن الدنيا معبر إلى الدار الآخرة فعكفت على عبادة ربها، ولسان
حالها :

سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا سَبِيلُ مُسَافِرٍ
وَلَا بَدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مُسَافِرٍ
وَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَمْلِ عُذَّةٍ
وَلَا سِيْمَا إِنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرٍ

=الأمهات - أثناء تدريسي لطالبات المرحلة الثانوية - أن أنصح ابنتها التي
تدرس في الصف الأول الثانوي أن لا تطيل صلاتها وأكدت على طلبها الغريب
الذي أدهشني، ورأيت مصداق ما ذكرت هذه الأم عن ابنتها في صلاة الضحى
التي تستغرق طوال فترة الاستراحة (الفسحة) وجزءاً من وقت الحصة الرابعة
مما أدى إلى تضجر بعض المعلمات من تأخيرها!

(١) رواه أبو داود برقم (١٣٩٨) قال محققوه : إسناده حسن، (المقنطرين) : أي هم
الذين أعطوا قنطاراً من الأجر.

حالتها مع أقاربها :

• إِنَّ احترام الكبير ورعايته ومؤانسته من محاسن هذا الدين العظيم، فقد قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَانِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»^(١).

فمن كان لديه كبير في السن فليراعِ كِبَره وسابقته إلى الإسلام، وليحرص على قضاء حوائجه، وإجلال قدره، والتلطف معه، والرفق به، وهذا دأب المحيطين بأمّ صالح، فقد حظيت منهم بقدر كبير من الاحترام والتقدير.

- وأما هي فقد كانت تتهلّل فرحاً بمن يزورها من أقاربها وتُرَحّب به، وأما من تأخّر عن زيارتها فإنها تدعو له بأن يحفظه الله، وإذا زارها لا تحوّل الجلسة إلى جلسة عتاب ولوم؛ وبذا كسبت وُدّ أقاربها.

هذه سيرة أمّ صالح العطرة كم نحن بحاجة إلى التأسي بها...

(١) رواه أبو داود برقم (٤٨٤٣).

١٣ - زهرة الصومالية

«من صدق مع الله صدق الله معه»

من دعاء النبي ﷺ : (اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكْرًا) (١).

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٥١).

١٣ - زهرة الصومالية

زهرة من الصومال :

(زهرة) فتاة صومالية في العشرينات من عمرها، يسربلها السميت، ويزينها الوقار، من عائلة مسلمة ثرية جدًا. لم تُعْرِها مباحج الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، فحبّ الدين عن الدنيا كفاها.

أنهت زهرة شهادة الثانوية العامة في الصومال، فطلب منها أهلها أن تذهب إلى بريطانيا أو أمريكا للدراسة في إحدى جامعاتها حيث يدرس هناك إخوتها، فامتنعت، فقد كانت لها أمنية سامية تريد أن تعتلي بها إلى درجات الجنان.

سُمُوا الْأَمْنِيَّة :

- لقد كان حلمها الوحيد وأمنيّتها أن تدرس العلم الشرعي الذي ثمره سلوكه دخول الجنة كما قال ﷺ : «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(١)، وبالتحديد كانت تريد دراسته في جامعات المملكة العربية السعودية، حيث تتميز مدارسها وجامعاتها بتدريس منهج أهل السنة والجماعة،

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٤٦).

وعدم الاختلاط بين الجنسين ، وهذا من فضل الله على هذه البلاد المباركة.

كانت زهرة تتردد كثيرًا على السفارة السعودية في الصومال
تطلب منحة دراسية ولم تيأس وصبرت وصبرت.

**تُرِيدِينَ إِيَّانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً
وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ**

وبعد ثلاث سنوات من مراجعة السفارة السعودية، ومخاطبة
السفارة لوكالة الكليات بالرياض أتت الموافقة.

**سَيَفْتَحُ اللَّهُ بَابًا كُنْتَ تَحْسَبُهُ
مِنْ شِدَّةِ الْيَأْسِ لَمْ يُخْلَقْ بِمِفْتَاحٍ
وَتَحَقَّقَتِ الْأُمْنِيَّةُ!**

- قَدِمْتُ زهرة إلى الرياض، والتحقت بإحدى الكليات - قسم
الدراسات الإسلامية - ، وأقامت في السكن الداخلي للطالبات.
كانت حريصة على المذاكرة، وعلى حضور الدروس العلمية
في وقت الاستراحة، وعلى الاجتماع بطالبات العلم في الكلية...
فقد وجدت اللذة والسعادة الحقيقية التي طالما حلمت بها،
وحقق الله منهاها.

لقد تركت والديها وإخوتها وجاءت لطلب العلم الشرعي،
ولسان حالها يقول :

لِي هِمَّةٌ فِي الْعِلْمِ مَا مِنْ مِثْلِهَا
وَهِيَ الَّتِي جَنَّتِ النُّحُولُ هِيَ الَّتِي
كَمْ كَانَ لِي مِنْ مَجْلِسٍ لَوْ شُبِّهَتْ
أَجْوَاؤُهُ لَتَشَبَّهَتْ بِالْجَنَّةِ

موقف لا يُنسى :

زهرة اسم لا يُنسى من ذاكرة الأيام.

- التقيت بها مرارًا، أحببتها في الله...

في يوم ما، في مصلى الكلية...

كنتُ في جلسة طيبة مع زهرة وبعض الزميلات نتجاذب
أطراف الحديث، فقامت إحدى الزميلات ووزعت مُطَيِّب الفم
(علك) على الجميع ، فلما جاء الدور إلى زهرة رفضت أخذه،
وقالت : يلهيني عن ذكر الله.

- فاعتذرت الزميلة قائلة : ولكنه يُطَيِّب الفم!

- فردت زهرة : والمسواك!

عمّ الصمت الجلسة...

ومرت الأعوام، وما زال صوت زهرة يرنُّ في أذني (يلهيني عن
ذكر الله).

• كان من دعاء النبي ﷺ: «رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطَوَاعًا، لَكَ مَخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَاهًا مَنِيًّا»^(١).

إن القلوب الحية ألسنتها مشغولة بالذكر والتسبيح، ولا تطيق فراقه، «ففي القلب خلّة وفاقة لا يسدّها شيء البتّة إلّا ذكر الله»^(٢)، «وما تنعم المتنعّمون بمثل ذكر الله»^(٣).

- أنهت زهرة دراستها الجامعية، ورجعت إلى بلادها داعية إلى الله.

ما أجمل الأخوة في الله، لا تُنسى وإن بُعد العهد، وطال الزمان...

(١) سبق تخريجه، مخبِتًا: من الإخبات: أي خاضعًا خاشعًا متواضعًا، أَوَاهًا: أي متأوّهًا متضرعًا.

(٢) الجواب الكافي ص ٧٨.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٥٨ (قول مالك بن دينار).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على قدوتنا وإمامنا محمد ﷺ ... وبعد :

إن هذه السير الطيبة التي سردها لك، ليس المقصد منها التسلية وقضاء الوقت في قراءتها، إنما لأخذ العبرة والعظة من أناس عاشوا في عصرنا، وربما يشغلهم ما يشغلنا، لكنهم احتزموا بعدة الصبر وابتغوا نيل الأجر، وعلموا أن الدنيا متاع، وأن الآخرة هي دار القرار؛ فجدّوا واجتهدوا.

فلا تيأس من حالك، فإنه متى كان لديك النية الصادقة والرغبة الجادة لمجاهدة نفسك، وكبح جماحها، وسوقها إلى فيء الطاعة؛ أعانك الله ووفقك وسددك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فلم يبق إلا الحذو كحذوهم، والسير في ركبهم.

أسأل الله أن تكون هذه السير مطية لي ولك إلى الدار الآخرة، وما ذلك على الله بعزيز.

تمّ الكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
وصلّ اللهم وسلّم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه
أجمعين.

كتبته الفقيرة إلى الله

شيخة بنت محمد القاسم

١٤٣٨/٨/٢٥ هـ

المراجع

- إغاثة اللفهان - ابن القيم الجوزية - المكتبة الثقافية - بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن - لأبي عبدالله محمد القرطبي - تصميم أحمد البردوني.
- الجواب الكافي - ابن القيم الجوزية - الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ.
- الأدب المفرد - الإمام محمد البخاري - تخريج محمد ناصر الدين الألباني - دار الصديق - الجيل - الطبعة الثانية - ١٤٢١ هـ.
- الدرر المشور - جلال الدين السيوطي - تحقيق : د. عبدالله التركي - دار هجر - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ.
- السنن الكبرى - أحمد ابن الحسين البيهقي - دار الفكر.
- السنن الكبرى - أحمد النسائي - المشرف على التحقيق : شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٢١ هـ.
- الفوائد - ابن القيم الجوزية - تحقيق : محمد عثمان الخشت - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة السادسة - ١٤١٨ هـ.
- المستدرک على الصحيحين - محمد الحاكم النيسابوري - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٧ هـ.
- المصنف في الأحاديث والآثار - الحافظ أبي بكر ابن أبي شيبة - الدار السلفية - الهند - الطبعة الأولى - ١٤٠١ هـ.
- الموطأ - مالك بن أنس - تحقيق : بشار معروف - دار الغرب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤١٧ هـ.

- الوابل الصيب - ابن القيم الجوزية - تحقيق : بشير عيون - مكتبة المؤيد - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٠٩ هـ.

- تفسير ابن كثير - أبو الفداء إسماعيل بن كثير - دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٣ هـ.

- جامع العلوم والحكم - عبدالرحمن ابن رجب - تحقيق : شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤١٢ هـ.

- حلية الأولياء - للحافظ أبي نعيم الأصبهاني - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٤٠٧ هـ.

- زاد المعاد - ابن القيم الجوزية - تحقيق : شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثالثة عشر - ١٤٠٦ هـ.

- سلسلة الأحاديث الصحيحة - ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٣٩٩ هـ.

- سنن ابن ماجه - محمد ابن ماجه - تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقى .
- سنن أبي داود - الإمام الحافظ أبو داود سليمان الأشعث - تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون - دار الرسالة العلمية - دمشق - طبعة خاصة - ١٤٣٠ هـ.

- سنن الترمذي - لأبي عيسى محمد بن سورة - دار إحياء التراث العربي - بيروت - تحقيق : إبراهيم عوض .

- سنن الدارمي - للإمام الحافظ عبدالله الدارمي - تحقيق : فواز زمزلي
وخالده العلمي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى -
١٤٠٧ هـ.

- سير أعلام النبلاء - شمس الدين محمد الذهبي - مؤسسة الرسالة -
بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٢ هـ.

- شرح رياض الصالحين - محمد بن صالح العثيمين - مدار الوطن
للنشر - الرياض - ١٤٢٥ هـ.

- شعب الإيمان - أحمد بن الحسين البيهقي - تحقيق أبي هاجر محمد
السعيد زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى -
١٤٢١ هـ.

- صحيح الجامع الصغير - ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي -
الطبعة الثانية - ١٣٩٩ هـ.

- صحيح سنن ابن ماجه - ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي -
بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٧ هـ.

- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج - تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي -
المكتبة الإسلامية - استانبول.

- صفة الصفوة - لأبي الفرج ابن الجوزي - تحقيق : محمود فاخوري
- دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٠٥ هـ.

- طبقات الأولياء - ابن الملقن - تحقيق : نور الدين شريبه - مكتبة
الخانجي - القاهرة - الطبعة الرابعة - ١٤١٥ هـ.

- طريق الهجرتين - ابن القيم الجوزية - دار الكتاب العربي - بيروت.
- فتح الباري - للحافظ أحمد بن حجر - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.
- كتاب الروح - ابن القيم الجوزية - تحقيق: بسام العموش - دار الفضيلة - الطبعة الأولى - ١٤٣٢ هـ.
- كتاب الورع - للحافظ أبي بكر عبدالله بن أبي الدنيا - تحقيق: محمد الحمود - الدار السلفية - الكويت - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ.
- مجموع فتاوى أحمد ابن تيمية - جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد - مجمع الملك فهد بالمدينة - ١٤١٦ هـ.
- مختصر قيام الليل - أحمد المقرئ - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٣ هـ.
- مختصر منهاج القاصدين - أحمد ابن قدامة المقدسي - علق عليه: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط - مكتبة البيان - ١٣٩٨ هـ.
- مدارج السالكين - ابن القيم الجوزية - نشر مؤسسة فؤاد بعينو - بيروت.
- مسند الإمام أحمد - أحمد بن حنبل - المشرف على التحقيق: شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.
- مكارم الأخلاق - عبدالله ابن أبي الدنيا - تحقيق ياسين السواس - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٩ م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة.	٧
٢	نورة الزومان (جدّتي لأبي).	١١
٣	سارة القاسم (عمّة والدي).	٤٣
٤	مها الدبل.	٦٣
٥	السجينة بلقيس.	٨١
٦	مها السريع.	٨٩
٧	نورة الحبرين.	١٠١
٨	هيا الجبرين.	١١٣
٩	نورة اللّحيد.	١٢٧
١٠	سمر.	١٣٧
١١	أمل عبدالعزيز.	١٤٥
١٢	أم عبدالله اليونانية.	١٥٥
١٣	أم صالح الشايع.	١٦٧
١٤	زهرة الصومالية.	١٧٧
١٥	الخاتمة.	١٨١
١٦	المراجع.	١٨٥
١٧	الفهرس.	١٩١